الفصل الرابع

المسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر

١٨١٠ — ١٨٨٠

سياسة اوربا عامة وروسيا خاصة نحو الدولة — المراد بالمسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر — حال تركيا امس واليوم — السلطان محمود الثاني — خروج محمد علي باشا المصري وعلي باشا الالباني على السلطان — ابادة الانكشارية — استقلال اليونان — مصر وتركيا ومعاهدة سنة ١٨٤١ — السلطان عبد المجيد — حرب القرم — الاستيلاء على سباستبول — معاهدة باريس — القلاقل اللبنانية — السلطانان عبد العزيز ومراد الخامس — السلطان عبد الحميد الثاني — حرب روسيا — حصار بلفنا — معاهدة برلين — انكماش السلطنة

كانت تركيا في العصور السالفة تحارب لزيادة الفتوحات أو لصد هجمات الهاجمين عليها ودفع الطامعين فيها. أما في القرن التاسع عشر فشرعت أمم اخرى تحارب باسم تركيا لا دفاعاً عن مصالح تركيا بل غيرة على مصالحهن وقد اصبحت مدينة البوسفور موضوعاً لنضال الدول الاوروبية. فاحداهن وهي الروسيا متحفزة للاستيلاء عليها وبقية الدول مع خوف كل منها من اعلان رغبتها في ضمها اليها قد عقدن الخناصر على ان لا يقترب منها طامع فيها. وبحلول القرن التاسع عشر زالت كل المخاوف من قوة تركيا العسكرية وكل ما بقي في صدور الدول من القلق لم يكن سببه قوة تركيا بل ضعفها وانحلالها فيختل التوازن اختلالاً عظيماً. وضعف الدولة وقوتها اكبر عامل في المسألة الشرقيـة. ومن المؤكد ان الترك لم يغلبوا بحق وشرف في اية حرب من حروبهم في القرن التاسع عشر. ففي حربهم مع الروسيا (١٨٠٩ — ١٨١٢). لم ينكسروا الا انكساراً ضعيفاً. وفي حروب اليونان (١٨٢٢) — ١٨٢٨) كانت افكارهم مشتتـة وأخذتهم ثورة اليونان المسلحة على غرة ومع ذلك لم يسلموا لليونان بمطالبهم الا بضغط الدول الثلاث العظمى. وفي حرب الروسيا (١٨٢٨ — ١٨٢٩) نالت عدوتها النصر لا بحد السيف بل بسلاح الغدر والخيانة ولم يسلم السلطان محمود لها بمطالب ويعترف لها بانتصار الا بناء على الاضاليل والتلافيق التي وصلت اليه. وفي حرب القرم طرد الترك الروس من سلسترة واضطروهم الى تخطي الطونة منهزمين قبل وصول الحلفاء واشتراكهم وبعد ذلك لم يفلح الروسيون في معركه يعتد بها. وفي حروب الروسيـا

والدولة التي ختمت فصولها بمعاهدة برلين اكد ثقات المؤرخين ممن لا يخافون في الحق لومة لائم ان الروس نالوا من النصر بالمال اكثر مما نالوا منه بحد السيف وان الترك لولا خيانة ضباطهم وحبهم للرشوة لافهموا الروسيين كل مرة انهم أمام خصم عنيد وبطل صنديد

على أنه اصبح من البديهي في القرن التاسع عشر اعتبار تركيا دولة لا حول لها ولا قوة على الدفاع وغالب الحروب والمخابرات التي تتعلق بالبوسفور حصلت مع افتراض ان تركيا مع ضعفها لا بد من وجودها حيث هي وكان يعتقد غلاة المتعصبين من الفرنجة أن الامة التركية ليست قابلة للرقي رغم التطورات التي حصلت في نظرياتها الاجتماعية والفكرية والادارية في السبعين سنة الاخيرة . وليس أدل على هذا التطور من الفرق بين حال القسطنطينية اليوم وحالها لما كان السفير الروسي يلقى في غياهب سجون القلعة ذات السبعة الابراج ـ وقت ان كان الوزير التركي يأنف أن يقوم تحية وتعظيما لممثل دولة أجنبية مهما كان قدرها وأيام كان السلطان يرى الاجنبي شيئاً حقيراً . على أن هذا التغير تناول أقلية فاما السواد الاعظم من الناس فقد كان في القرن التاسع عشر على ما كان علية من الجمود والجهل وكانت لا تزال الادارة والحكومة مرتشية لان تركيا لم تتمتع بفترة طويلة من الراحة والطمأنينة وعدم انشغال البال من جهة حدودها وأملاكها ولم يتفرغ بنوها بما لديهم من حذق وكياسة وهمة وعزم الا الى القاء بذور الشقاق بين دول أوربا الطامعة فيها ليأمنوا شرها ولم يوفقوا لاستثمار خيراتها وكنوزها وتنقيح وترتيب سلطاتها التنفيذية . وعسى هذه الفترة ان لا تكون من أحلام المنام التي لا سبيل الى تحقيقها وليس من الصواب الاعتقاد بان سلامة تركيا ونجاتها معلقة باصلاحاتها الداخلية فقط دون غيرها . وقد سارت الدول العظمى على قاعدة ضرورة وجود حائل يحول بين روسيا والبوسفور وان تركيا لذلك ينبغي أن تكون حيث هي وأن الرجل المريض اي تركيا كما صورها عقل نقولا المختبل يلزم ان تنفخ فيه روح الحياة والقوة

ولقد كان القرن التاسع عشر مجمع عدة حوادث آلت الى قص أطراف تركيا وهددت السلطان بالجلاء عن أوربا

لما رقى محمود الثاني عرش السلطنة سنة ١٨٠٨ كان طفلا أو العوبة في يد جنود

الانكشارية الذين فتكوا بغير واحد ممن تقدمه من السلاطين

وقد افتتح حكمه بحرب مع الروسيا على ان مطامع قيصرها وعداوته لم تكن بذات خطر بالنسبة لما كان ينويه نابليون للدولة من التقسيم ويعمل له في الخفاء. فمعاهدة بوخارست (سنة ١٨١٢) وضعت حداً للاخطار الناجمة عن مطامع الروسيا وساعدت على فشل مشروع نابليون. على أن محموداً ابتلي باعداء من قومه وسكان داره بعد ان تخلص من نيات مكر الروسيا وفرنسا وذلك ان بشوات عظاماً استبدوا بالامر والسلطة في جهات نائية من الدولة وصاروا يحكمونها كملوك مستقلين هازئين بسيادة السلطان واستبد أيضاً جماعة من الاعيان المحليين ببعض بلاد تركيا

علي باشا تبه دلنلي

وقراها وسخروا من عساكر السلطان وجنوده. واشهر الرجال الذين هددوا الدولة بالانقسام رجلان أحدهما محمد علي الذي جعل مصر مستقلة بزعامته في العقد الثاني من القرن التاسع عشر وقد أسس فيها سلطنة على أوطد اساس بحيث أمكنه ان يورثها لاولاده واعقابه من بعده ومنهم صاحب السلطة الشرعية على مصر الآن والثاني علي باشا تبه دلنلي صاحب يانينا الذي استبد بالسلطة في بلاد البانيا وانشأ لنفسه برماح البربرية والتوحش عزاً وفخاراً ساذجاً وما زال صاحب الامر في تلك البلاد الوعرة الى أن ظفرت به جنود السلطان وقتلته سنة ١٨٢٢ ولاجل التغلب على هذه الخصوم العنيدة

ومجاوزة كل هذه الاخطار الشديدة كان لابد من وجود جيش قوي منتظم وتعضيد من جانب الاهالي والرعية ولكن الرعية كانت تفضل اعيانها وذوانها المحليين على ضباط العثمانيين القساة وتؤثر حكمهم على حكم الترك الفاسد واصبح الجيش من الانكشارية غير مخلص في اوقات الحرب مع انه مشاكس متمرد عاص في الثكنات ايام السلم

فالسلطان محمود الذي كانت له ارادة حديدية وحذق سياسي عظيم وصبر لا يقهر شرع يعمل على مداواة هذه الادواء والعلل ولم تنضج مشروعاته الا بعد عشرين سنة . ففي سنة ١٨٢٦ بطش بالانكشارية وبيان ذلك ان سكان بيره وجهوا نظرهم جهة القرن الذهبي في صبح يوم من ايام شهر يونيو فرأوا عمودين من الدخان صاعدين

جند الانكشارية

الى السماء من جهة مآذن حي استامبول وكان الانكشارية قد تمردوا وأحدثوا فتنة وشغباً ولكن السلطان كان على تمام الاهبة لهم وكان الدخان دليلاً على نسف ثكناتهم وان الجنود التي لم يمد الله في اجل نظامها الا لتلطخ سمعتها الحسنة القديمة بصفات الجبن والخسة والدناءة وحب التمرد قد أبادها السلطان محمود عن آخرها ومن سلم منهم من الحريق لم يسلم من البنادق المسددة والسيوف المشهرة وسفن النفي والتعذيب . وأصبح السلطان بعد تقلص ظل الانكشارية حراً في انشاء جيش جديد منظم حسب القواعد الفنية الاوربية الحديثة المتبعة في جيوش ممالك الغرب جيش يستطيع

المحافظة على كرامة وشرف الاسم العثماني . وكان السلطان يطالع كتباً فرنسية في علم الحرب ويمرن عساكره بنفسه على الحركات ويلبس ملابس الجنود ويركب خيول الجنود على رحائل عسكرية وكان يشتغل ليل نهار باجتهاد دائم متواصل. ولكن الاقدار مع ذلك كانت تعمل على معاكسته فانه بعد تشتيت شمل جنود جيشه القديم وقبل ان يتم جمع وتنظيم جيش جديد فوجىء بما لم يكن في الحسبان وداهمته الاخطار من كل مكان

وأول الاخطار التي أقلقت بال السلطان محمود كانت من جهة اليونان ويكفي ان يكون تاريخ هلاس القديم المجيد الحافل بالافعال الشريفة والاقوال الحكيمة مرغباً للناس في التداخل في شؤون سكانها ومساعدتهم على طلب الاستقلال . على ان الواقع ان نيران الفتنة لم تشتعل طلباً للحرية وسعياً لها وانما كان الدافع اليها تحريضات

مثال من الجند التركي بالزي الجديد

ودسائس الدولة الروسية مع حب عامة اليونان للمشاغبة حباً موروثاً . ومهما كان السبب الحقيقي لثورة اليونان ضد السلطان فان محبي الانسانية والعلوم والآداب اليونانية القديمة من الغيورين في انكلتره وفرنسا توهموا أن الفتنة اليونانية التي كانت أثراً من آثار الثورة الفرنسية الكبرى السابقة لها بنحو قرن وربع من الزمان ما هي الا صدى للحرية اليونانية القديمة التي ترددت من قديم الزمان في ارجاء الترموبيله ومراتون ولا عجب فان الاناشيد التي كان يرددها أفراد العصابات اليونانية في القرن التاسع عشر كانت بنفس لغة الشاعرين الشهيرين القديمين ايسكليس وسوفوكليس ولذلك ساد احساس طبيعي حقيقي في ممالك غرب أوربا بوجوب مساعدة اليونان في استقلالهم . فمن الشعراء الذين باعوا أنفسهم بيع السماح في سبيل

الحرية اليونانية بيرون الشاعر الانكليزي المشهور وكان مدفوعاً بعامل حب اليونانية والاعجاب بآثارها الباهرة وكذلك انضم الى صفوف اليونان من الجنود الذين يحبون المخاطرة ويميلون الى مساعدة الضعيف على القوي ميلاً فطرياً البطل الانكليزي تشارتش وكذلك انضم الى اليونان في حرب استقلالهم جماهير غفيرة من الابطال واهل المروءة والنخوة من سائر الطبقات والملل والنحل مدفوعين بعوامل مختلفة واهتم بالمسئلة اليونانية كل فكر رشيد وقلب جسور . وكانت فرنسا يسرها ويهمها ان يكون على عرش أثينا أمير من سلالة ملوكها وكانت سياسة انكلتره في شخص وزير خارجيتها جورج كانتج تقضي بترك الامم المظلومة والاجناس المهضومة الحقوق تدافع عن حريتها واستقلالها وتجهر بالمطالبة بهما . اما مذهب سياسة اوربا نفسها في ذلك العهد تلك السياسة التي كان يتمسك بها تمسكا شديداً البرنس مترنخ فكانت تقضي بجعل الدول الاوربية بصفة حارس غيور يسهر على ابقاء حال اوربا ونظامها على ما قررته معاهدة سنة ١٨١٥ وبمنع كل حركات الحرية والاستقلال وبقمع كل من يدعو اليها

اما المستر كانتج فكان يكره سياسة التحالف المقدس هذه كراهة شديدة ويعتبر الثورة اليونانية رغبة بسيطة من جهة شعب مسيحي يريد أن يخلع نير الترك وانها ليست تطاولاً جمهورياً على حق ملوكي مقدس . لذلك بذل وزير خارجية انكلتره كل مجهود في ايجاد اتفاق بين الدول المحايدة ونجح في حمل الروسيا ثم فرنسا على الاشتراك مع انجلترا في جبر السلطان على امضاء شروط معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ على ان السلطان لم يسلم بمطالب الدول ولم ير وجهاً ـ وجيوشه (على العموم) منصورة ـ لحرمان نفسه حرماناً اختيارياً من املاكه اليونانية . واشتبك بالصدفة الاسطول التركي واسطول الحلفاء في موقعة بحرية في مرفأ نفارينو (اكتوبر سنة ١٨٢٧) فتحطم الاول وانقلبت المظاهرة السلمية من قبل دول اوربا العظمى الى حصر بحري ثم نزلت قوة فرنسية الى البر في مورة وفي الحال تمكنت من اجلاء الجنود المصرية المساعدة واخيراً آل الامر الى حرب بين الروسيا والدولة (١٨٢٨ — ١٨٢٩) وهذا كان اقصى اماني روسيا من زمان بعيد

ولقد كانت الروسيا قد تحرشت بالدولة قبل ذلك فقدمت هذه لها ضحايا عظيمة باجابتها الى معاهدة اقرمان سنة ١٨٢٦ لان جيش السلطان اذ ذاك لم يكن على

تمام الاهبة والاستعداد لحرب عظيمة مع دولة قوية وكان تحالف الدول الثلاث العظمى سنة ١٨٢٧ يمنع انفراد احداهن بالعمل ولكن بموت المستر كانتج وحلول اللورد ابردين محله في وزارة الخارجية انفسح المجال أمام روسيا للعمل بنفسها منفردة حرة. وكانت النتيجة زحف دبيتش بجسارة على جبال البلقان وكسر جيوش السلطان محمود واضطراره الى امضاء معاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩ بحضور جيش روسي لم يكن يزيد عدده عن ١٥٠٠٠ ولقد نجح السيف المشهر المجرد في وجه تركيا في حمله على التنازل عما عجزت مجادلات السفراء ونكبة نفارينو المريعة عن الحصول عليه. وبذلك اعترف السلطان باستقلال اليونان ووسعت حدودها سنة ١٨٣٢ الى النقدر

السلطان محمود الثاني

الذي كانت عليه لغاية عهد عبد الحميد الثاني . ورفض الامير ليوبولد تاج اليونان وقد ادرك الناس من افعال اوتو البافاري ملك اليونانيين ان الحكومة الدستورية برآسة المسيحيين الاجانب لا تقل في فسادها واختلالها وعملها على اغاظة المحكومين عن حكم الباشا التركي المستبد الظالم

ولقد كان انفصال اليونان ضربة شديدة على آمال السلطان محمود على انه لو كان ترك بعد ذلك مقدار ١٠ سنوات حرًّا مرتاحاً مطمئناً لكان بامكانه تنفيذ سياسته الاصلاحية التي كان مغرماً بها . أما وقد كان سيء الطالع فقد سلطت الاقدار الدول على تحطيم أسطوله كما ابتلته بالروسيا التي حطت من قدره واضعفت جيشه وجعلته

فريسة لتابعه القوي محمد علي والي مصر الذي أمعن بجنوده في قلب بلاد الشام بل وتهدد البوسفور فتداخلت روسيا في الوقت المناسب بين التابع والمتبوع (وكوفئت في الحال على تداخلها بمعاهدة خونقار اسكله سي ١٨٣٣) وبذلك نجت القسطنطينية من مخالب محمد علي

ازعجت هذه المعاهدة الدول الغربية ونبهتها من غفلتها وسباتها لانها جعلت لروسيا حق مطلق اجتياز الدردنيل ومضى وقت ليس بالقصير حتى طلبت تلك الدول الاعتراف بحقها في معارضة روسيا واعتراض مطامعها . وكانت فرنسا في صف محمد علي

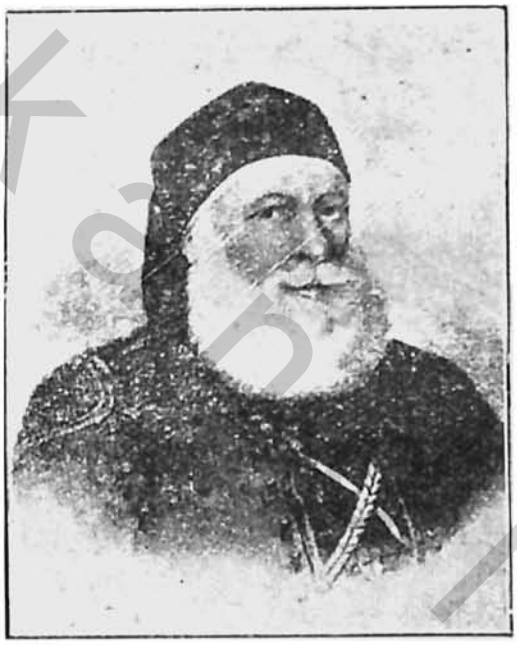

محمد علي باشا خديوي مصر

اما انجلترا فكانت تحت رياسة الاحرار في وزارة غراي وملبورن وقد شغلتها المسائل الداخلية عن التفرغ لشؤون السياسة الخارجية وقد اعترف بالمرستون بأنه أبطأ أكثر من اللازم قبل أن يقدم للسلطان التعضيد المطلوب . وفي آخر الامر سافر الاسطول الانكليزي قاصداً مياه الشرق الادنى واستولى على عكا واقتصرت املاك محمد علي بمعاهدة سنة ١٨٤١ على مصر وملحقاتها مع سيادة السلطان الذي ضمنت سلامة واستقلال سلطنته دول اوربا العظمى . وتاريخ معاهدة سنة ١٨٤١ مهم وجوهري في سجل حوادث الدولة العثمانية الاخيرة وذلك لان الدولة العلية وضعت لاول مرة تحت وصاية وعناية الدول رسمياً

وفي غضون هذه الحوادث توفى السلطان محمود سنة ١٨٣٩ في السنة التي كادت املاكه تقع فيها غنيمة باردة في يد تابعه الخطير. ولو ان الله مد في اجله ١٤ سنة اخرى لكانت الدولة العثمانية انتفعت بالاصلاحات الداخلية اعظم انتفاع ولا بد ان ارادته القوية كانت تناولت كل فروع الادارة والحكم العثماني بالرقي والتحسين. أما وقد كان ابنه ووريثه السلطان عبد المجيد على ما كان عليه من ضعف العزيمة والهوادة ـ بصرف النظر عن صفاته الاخرى الحميدة والممدوحة ـ فما كان يرجى اجراء شيء من الاصلاح على يديه بالذات

السلطان عبد المجيد

وعكرت صفو الاصلاحات الداخلية التدريجية الهادئة التي أحدثها رجال عبد المجيد شوائب حادثتين من الحوادث الخارجية فالحادثة الاولى مرت ولم يقف بسببها سير الاصلاح الا مؤقتاً. وذلك أنه في سنة ١٨٤٩ حدث ان جماعة مختلفة الاجناس من بولونيا والمجر التجأوا الى بلاد السلطنة السنية ليتمتعوا فيها بالسكون والهناء بعد أن نالهم الشيء الكثير من الظلم والاضطهاد والعذاب على أيدي النمسا والروسيا اللتين قمعتا الثورات الناشبة فيهما خصوصاً وفي أوروبا عموماً لذلك العهد باقصى ما يتصور من الشدة الدموية. وكان بين هؤلاء المحتمين بحمى الدولة زعماء مشهورون مثل كوشوت وبم ودمنسكي فلم يسع كلا من امبراطور النمسا والروسيا الا طلب تسليم

أولئك الزعماء ومعنى تسليمهم التنكيل بهم في الحال ولكن الترك رأوا أن تسليمهم ينافي مكارم الاخلاق الشرقية وواجبات الكرم والضيافة وعضدهم السير ستراتفورد كاتنج في مقاومتهم الشريفة لطلب الامبراطورين فلم يسع النمسا والروسيا الا قطع العلائق بتركيا . وتفاقمت الامور ولكن ظهور الاسطولين الانكليزي والفرنسي في مدخل الدردنيل اظهر للعالم ان تركيا لا تقاتل وحدها هذه الدفعة وبذلك زال الخطر وكتبت السلامة المحتمين بظل الدولة ولم يكبر الناس همة السفير الاعظم ومروءة السلطان العثماني في موقف من المواقف اكبارهم لهمتهما ومروءتهما في

الامبراطور نابليون الثالث

هذا الموقف الذي وقفاه يدافعان عن مبدأ من اشرف المبادىء الاخلاقية . والحادثة الثانية التي عكرت صفو السير في سبيل الاصلاحات الداخلية كانت أشد من سابقتها هولاً واكبر تأثيراً وكان سببها من الحوادث التافهة . ذلك انه كان في بيت المقدس رهبان من جنسيات مختلفة تابعون لكنائس او طوائف نصرانية مختلفة ما بين لاتينية ويونانية وأرمنية . وكان الرهبان من اللاتين والرهبان التابعون للكنيسة اليونانية لا ينقطعون عن النزاع والخلاف على الاماكن المقدسة مشهد حياة المسيح وكانت فرنسا تحمي الرهبان من اللاتين وروسيا تحمي اتباع الكنيسة اليونانية . واذا صح

ما قيل من أن الامبراطور نابليون الثالث وجد من الضروري الهاء الفرنسيين بعمل حربي أو أن مشاجرات الرهبان في ذلك العهد تصادف وصولها الى درجة خطيرة جداً فانه من المؤكد على كل حال ان الفرنسيين تغالوا في مطالبهم سنة ١٨٥٢ الى درجة لا تحتمل وحارت تركيا بين الفريقين المتذمرين الشاكيين ولم تعرف كيف توفق بينهما أو من منهما تؤثره بانصافها ومراعاتها. وبمساعدة ستراتفورد كانتج الذي دخل اذ ذاك في مصاف اللوردات وصار « الفيكونت ستراتفورد دي رد كليف » أمكن حسم النزاع في ابريل من سنة ١٨٥٣ ولكن روسيا لم ترض بما ارضى غيرها

نقولا الاول قيصر روسيا

واصرت على طلب امتياز لو أجيبت اليه لحازت الزعامة والحماية على الاثني عشر مليوناً التابعين للكنيسة اليونانية والمذهب الارثوذكسي في بلاد الدولة. على ان هذا لم يكن ليسلم به طبعا ومضت الشهور العديدة ورجال السياسة في أوربا يتنافسون في تقديم اقتراحات الترضي والمسالمة ويقدمون مشروعات يغلقون بها باب المشاكل والحروب ولكن كان من الامور الواضحة من اول نشأة الخلاف ان قيصر روسيا المفتون لا يرضيه ما هو دون الحرب وامتشاق الحسام

لذلك أسرع الروس فزحفوا على ولاخيا في يونيو من سنة ١٨٥٣ من غير ان يكون لهم عذر مبرر. ولكن الترك مع ذلك رضخوا لارشادات ونصائح اللورد

ستراتفورد واكتفوا بالاحتجاج واستمرت المخابرات في فينا وغيرها ودخلت اساطيل انكلترا وفرنسا الدردنيل في اكتوبر. والى هنا لم تكن الحرب قد أخذت بعد شكلها الجدي الرسمي ولكن بعد ان انذرت دول غرب اوربا روسيا صراحة وبعد ان اقتحمت مراكبها مرفأ سينوب وأغرقت قسماً من الاسطول التركي واهلكت بحارته المستضعفين على مرأى من قائدي الاسطولين الانكليزي والفرنسي اللذين كانا راسيين في البوسفور زاد الحماس في صدور الانكليز وابتدأت الحرب المعروفة بحرب القرم في ٢٨ مارس سنة ١٨٥٤

وكان سبب شهر فرنسا وانجلترا الحرب على الروسيا الرغبة في ارغام الروسيا على سحب جنودها من ملدافيا وولاخيا. ولم تكد تصل قوى فرنسا وانجلترا المتحدة الى ميدان القتال بقيادة المرشال « سان ارنو » ولورد « رجلان » حتى اضطر الروسيون من جراء مضايقات النمسا وبسالة الترك في الدفاع عن سلسترة بقيادة بطلر ونازميت الى النكوص والارتداد وقد عبروا الدانوب في يونيه فسار الترك في اعقابهم والى هنا وصلت الحرب الى الدرجة الفاصلة

على انه كان في الناس احساس عام ان روسيا لا تتأدب وتلتزم جادة الاعتدال الا بحصار قلعة سباستبول الغضوبة ودكها دكاً. وبناء على ذلك شرع الحلفاء في سبتمبر يوجهون حملة على بلاد القرم لهذا الغرض وكان عملهم هذا خرقاً في الرأي واندفاعاً اعمى وراء العواطف فقد كانوا جاهلين بطبيعة الجهة التي ينزل فيها الجنود وجاهلين بطبيعة الاستحكامات وقوة الاعداء ومع ذلك رست سفنهم على مدخل تلك الجزيرة الجرداء فكان من نزل فيها من الجنود قليلاً ولم تتخذ لهم قاعدة حربية كما لم تدبر لهم وسائط التموين وقد وجدوا العدو بانتظارهم في جموع اكبر من جموعهم وفي مواقع حصينة على الاكمات الواقعة خلف نهر « الما ». وقد اخطأ الفرنسيون في القيام بما وكل اليهم من الحركات الحربية فلم يسع الانكليز الا شق طريق لهم صاعدين الاكمة وقد فغرت مدافع العدو عليهم فاها فامطرهم وابلا من النار ومع ذلك أجلوا الروسيين عنها فولوا أمامهم الادبار (٢٠ سبتمبر). ولو كان الحلفاء بدرجة من القوة استطاعوا معها الاستمرار في مطاردة عدوهم لكان سقوط سباستبول في أيدي المشددين عليها في اليوم التالي أمراً محققاً ولكن قلة العدد وعدم توفر وسائط العناية بالجرحى وجبن البعض وتحاسد البعض الآخر كل هذه الامور أوجبت على اللورد

« رجلان » التمهل والانتظار . ولما أحس الحلفاء بضرورة اتخاذ مرفأ لهم للتموين والامداد زحفوا زحفاً جناحياً واستولوا على ثغر « بالاكلافا » ثم أخذوا يستعدون لمحاصرة قلعة سباستبول من الجنوب . وقد قابلهم الروسيون بأعمال مختلفة منها انهم هجموا على الجناح الايمن للقوة الانكليزية في الثاني عشر من اكتوبر فردهم الانكليز رداً شديداً وأمعنوا فيهم قتلاً بجنودهم الراكبة المثقلة التي قادها الجنرال « سكارليت » وكذلك قابلتهم وهاجمتهم بنار حامية وبسالة نادرة أيضاً فرق الجنود الخفيفة الانجليزية فتغنى شعراء ووطنيو الانكليز بأفعالها الباهرة زمناً طويلاً وان الذين رأوا بعيني رؤوسهم « وادي الموت » الخطير المهلك هم الذين وحدهم يمكنهم تمثل «فوهة جهنم»

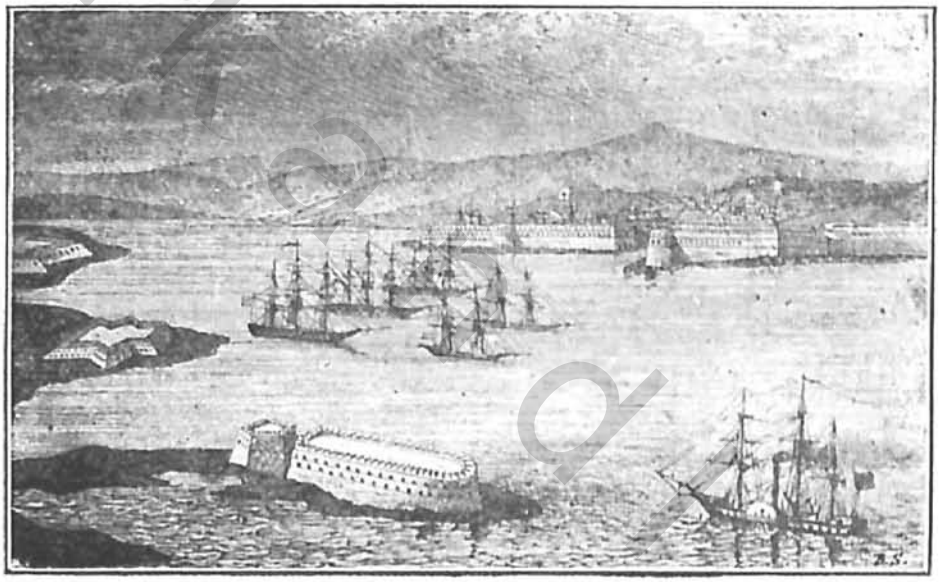

حصون سباستبول

التي سار نحوها « الـ ٦٠٠ جندي النبيل » وهم على أحسن ما يكون الابطال من رباطة الجأش وحسن انتظام الصفوف . وقد خسر الانكليز في ذلك اليوم المشهود خسائر جسيمة تركتهم بعد ذلك عاجزين عن الاشتراك في حركات جديدة. على انه في الخامس من نوفمبر أخذ ٨٠٠٠ من الانكليز على غرة في الضباب وكانوا مؤلفين من جنود الحرس وجنود الآلاي العشرين ومع ذلك أمكنهم الثبات في وجه الروسيين المفاجئين وكانوا لا يقلون عن ٤٠٠٠٠ وكان ذلك على أحد سفوح أكمة « انكرمان » ثم أتى الفرنسيون لنجدة الانكليز وأكرهوا العدو على الفرار من غير نظام

وكانت أعمال حصار سباستبول في غضون ذلك تتقدم بخطوات بطيئة. أما الدفاع

عنها فقد تولى أمره النابغة « تودلين » وكان دفاعاً ينم عن حذق وذكاء وهمة لا تني وعزيمة لا تفتر فكان هجوم الحلفاء من غير تروٍّ معطلاً غير حر بتداخل الحكومة الامبراطورية في باريس في ترتيبات جيشها في القرم . ولذلك أخفقت سائر المجهودات التي بذلت في الاستيلاء على الحصن في ربيع وصيف سنة ١٨٥٥ وقاوم العدو مقاومة مدهشة وتوالت المصائب على الحلفاء وعبس لهم وجه الزمان . فمات القائد الفرنسي وتولى بديله ثم استقال هذا البديل وحالفت الهموم والاشجان اللورد « رجلان » وكرهه الرأي العام وانتقده انتقاداً مراً قاسياً أثر في صحته فمات تحت أثقال العبء الفكري والبدني في يونيو سنة ١٨٥٥ ولذلك لم تسقط حصون « ملاكوف » الا في

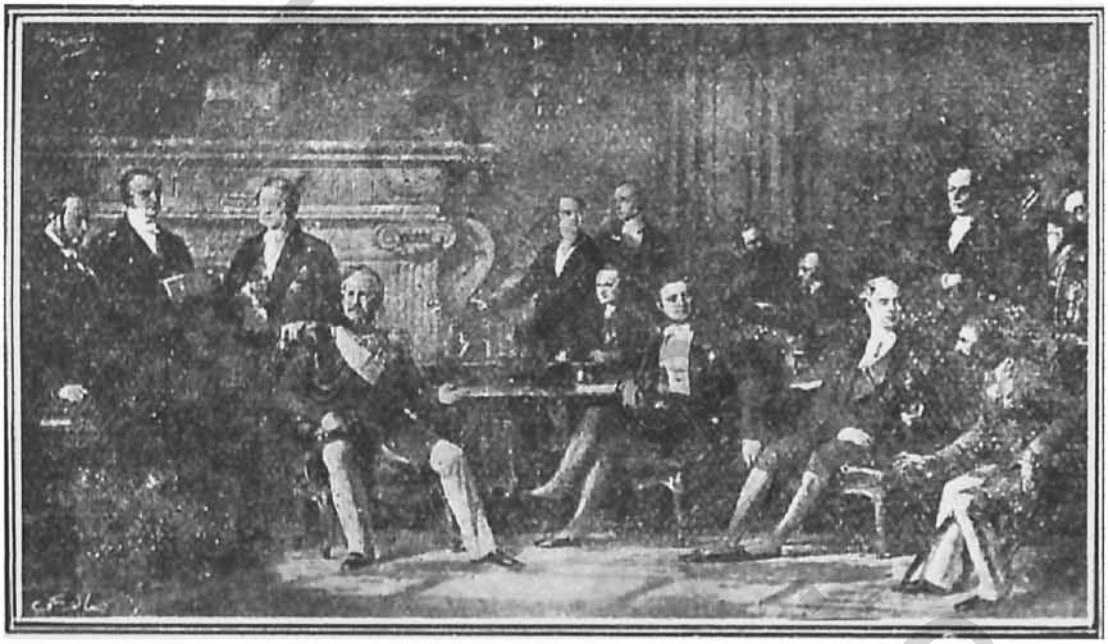

مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦

سبتمبر بعد ان شدد عليها الفرنسيون الهجوم ولم يتمكن الحلفاء من احتلال مدينة سباستبول الا بعد سقوط تلك الحصون

وبدلاً من أن ينتهز الحلفاء فرصة انتصارهم على الروس ويزيحوا روسيا الى حدودها القديمة أي الى القوقاز ونهر دنيستر فيبعثون مملكة بولونيا من قبرها ويجعلونها شجى في حلق الروس من جهة الغرب عمدوا الى عقد صلح وأمضيت شروط معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ وقد عدلت بموجبها الحدود تعديلاً طفيفاً . ولكن أعم ما عني المتعاهدون بذكره من الشروط ضمان الدول صاحبة التوقيع سلامة واستقلال السلطنة

العثمانية ومحو الحماية الروسية من ولايات الدانوب والصرب والاعتراف بحياد البحر الاسود بالنسبة لمراكب سائر الدول التجارية مع بقائه مفتوحاً لها جميعاً واقفال البوسفور والدردنيل في وجه سائر المراكب الحربية الاجنبية ما دامت الدولة العثمانية ليست في حالة حرب . وقد تعهدت الدول العظمى أن لا تتداخل في شؤون تركيا الداخلية ووعد السلطان باصلاحات داخلية في الادارة مع تحسين معاملة رعاياه من النصارى . وكانت قد ظهرت نصوص تلك الاصلاحات الموعودة في الخط الهمايوني في فبراير سنة ١٨٥٦ على ان أهم جزء من المعاهدة وهو المختص بحياد البحر

السلطان عبد العزيز

الاسود ألغاه القيصر سنة ١٨٧٠ لما نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا وبقيت انكلترا من غير حليفتها التي تناوئه معها العداء وتصده عن مشروعاته. وفي سنة ١٨٧١ وافقت حكومة المستر غلادستون على نقض العهد والوعد على ذلك النمط القبيح وعاد البحر الاسود مرة أخرى بحيرة روسية وبذلك كان الاستيلاء على سباستبول عبثاً

ومرت معاهدة باريس بالدولة العثمانية وهي سليمة لم تمس بسوء ومع انها لم تفلح في رد شيء من أملاكها المفقودة الا انها من جهة أخرى لم تسلبها أملاكاً جديدة . على ان الوقت الذي أصبح فيه قص أطراف الدولة ضربة لازب لم يكن بعيداً

ولقد كان اللورد سترانفورد يعلم بثاقب فكره من زمان بعيد ان لا شيء يضمن سلامة الدولة غير الاصلاحات الحقيقية الشاملة . فلما غادر الباب العالي سنة١٨٥٨ لم يخلفه في مركزه من كان على درجة من قوة العزيمة وحصافة الرأي يستطيع معها أن يحدث وينفذ التغييرات اللازمة لبقائها واستقلت ولايات الدولة المتطرفة بالتدريج واحدة بعد الاخرى. وملدافيا وولاخيا اللتان اتحدتا سنة ١٨٥٨ استقلتا بعد ذلك استقلالاً فعلياً (وكونتا رومانيا) وباستيلاء أمير من آل هوهنزلرن على عرش الولايتين المتحدثين استيلاء وراثياً سنة ١٨٨٦ صار لرومانيا محل بين الدول الاوربية . وقامت قلاقل في

السلطان عبد الحميد الثاني

لبنان سنة ١٨٦٠ فأرسلت الحكومة الفرنسية اليه جيشاً لقمع الفتن واعادة النظام وفي التوفيق بين الحقوق المتضاربة وجدت فرصة للورد دوفرين أظهر فيها تلك المواهب السياسية السامية التي عرف بها بين رجال السياسة. وتوفي السلطان عبدالمجيد سنة ١٨٦١ وبموته زالت آثار الامل باصلاح وعلاج تركيا

وكان خليفته أخوه السلطان عبدالعزيز جاهلا مستبداً جرّ بتبذيره واسرافه الدولة الى شفير الخراب سنة ١٨٧٥ وبذلك حرمها من ذلك العطف الذي قلما يناله المسرفون اذا أصبحوا صفر الايدي ولم يشتهر بين الناس بشيء الا بحبه للسفر والتجول ولم يعرف سلطان عثماني قبله ترك بلاده في غير حرب وهام على وجهه سائحاً مسافراً

في بلاد نائية ومع ذلك فان حلفاءه لم يقابلوه في سياحاته هذه بكبير اهتمام

وفي سنة ١٨٧٦ خلع ثم وجد ميتاً ولم يعرف سبب موته ولكن خاتمة حياته اثرت في قوى اخيه العقلية ولذلك عزل مراد الخامس ابن عبد المجيد بعد ثلاثة اشهر من تبوئه العرش فخلفه اخوه عبد الحميد الثاني

وكان عبد الحميد رجلاً سيء الطالع اشتهر بالذكاء والدهاء قضت الاقدار أن يشهد على الرغم منه استيلاء الدول على املاكه. وكانت قبل أن يتبوأ العرش تشتعل نيران ثورة بين مسيحيي الشمال فقد تمردت الهرسك سنة ١٨٧٤ وابتدأت على أثرها تلك المذابح والتعذيبات التي تشوب الاحكام التركية في العادة. ولما عضدت روسيا بلغاريا شرعت هذه في رفع نير السيادة التركية سنة ١٨٧٦ فقابلها رجال الادارة والشرطة التركية بمذابح وفظائع قمعاً للفتنة وتسكيناً للثورة وبالغ كتاب الجرائد في وصف المذابح والفظائع البلغارية التي حصلت في « بطق » وهولوا كثيراً . ولكن أفعال الترك في بلغاريا كانت اذ ذاك على درجة من الخشونة لم يسع انكلترا معها الا رفع الصوت الجهوري بالاستنكار العادل والمقت الحق بصرف النظر عن الكتابات المهيجة التي كان ينشرها في الملأ أقدر الكتاب وأشهر الساسة كالمستر غلادستون وقد انضمت الصرب والجبل الاسود أيضاً الى صفوف البلغار الثائرين . فكان لا بد لتركيا من استجماع كل مجهود لمنازلة خصومها العديدين . وعبثاً حاولت الدول العظمى ان تتوسط بين الطرفين . وانعقد مؤتمر في يناير سنة ١٨٧٧ بمدينة الاستانة فرفضت اقتراحاته وأعلن على اثره قانون اساسي دستوري على شكل اقرب الى التمثيل الروائي منه الى الشكل الجدي المزمع التنفيذ . وانفرطت روسيا من عقد الاجتماع الدولي الاوربي وانبرت معلنة الحرب على الدولة في ابريل سنة ١٨٧٧ ولسنا نعرف حقيقة الاسباب التي دفعت القيصر الى شهر العداء على العثمانيين فبعضهم يقول ان القيصر اندفع بعامل حب الفتح والتوسع في الاملاك وآخرون يقولون بل احتراماً لرغبة السلافيين رعاياه اذ كانت كل اميالهم وعواطفهم متجهة نحو شقيقتهم الصغرى بلغاريا. كذلك ليس من الامور المعروفة ما اذا كانت الدول باتفاقها معاً على حل المشكل وبلوغ المأرب من غير سفك الدماء تصيب النجاح أم لا . ومهما يكن من حقائق الامور فقد ابتدأت الحرب وأظهر الترك في اولها بسالة خصوصاً في آسيا حيث كسبوا موقعة « قزل تابى » وطردوا الروس من « قارس »

أما في اوربا فلم يحاولوا منع الروس من عبور الدانوب واحتل الروس « طرنوه » و « نيقوبوليس » وأرسلوا كوكبة سريعة من الفرسان لاجتياز جبال البلقان بقيادة الجنرال « جوركو » ولكن كان اشد مظاهر الحرب هولا وبسالة

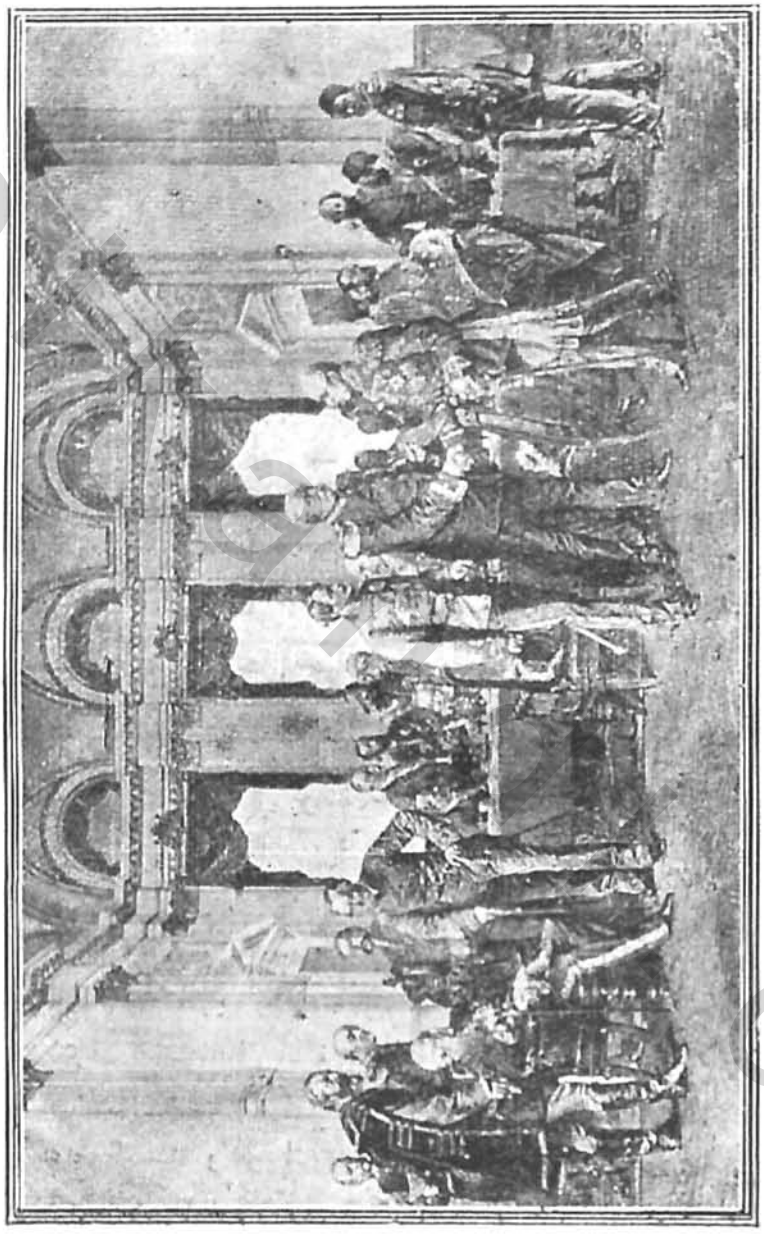

مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

دفاع عثمان باشا عن « بلفنا » فلقد حاول الروس والرومانيون عبثاً الاستيلاء على حصونها عنوة بعد جهاد خمسة اشهر انكسروا في خلالها مرتين في العراء انكساراً شديداً . واخيراً في ديسمبر تضافرت الرشوة التي قدمت بسخاء لقواد الجيوش

الآتية بالمدد والذخيرة التركية مع الجوع على احداث النتيجة التي عجزت اضخم المدافع وأهم الاسلحة والعدد واوفر الجنود على الظفر بها وبرز عثمان باشا على رأس جيش من زهرة ابطال العثمانيين ونخبة رجالهم يريد ان يقتحم طريقاً للخروج وسط صفوف العدو المحاصر ولكنه اخفق واضطر الى التسليم وخسرت روسيا مع ذلك في حصار بلفنا ٥٠٠٠٠ من خيرة عساكرها

وبتسليم بلفنا لم تصبح نهاية الحرب بعيدة فقد اضطر مختار باشا الى الاعتصام بارمينية بعد ان اخذ الروس منه قارس وجاوز الجنرال جوركو سلسلة جبال البلقان مرة اخرى سنة ١٨٧٨ وكانت اذ ذاك مغطاة بالثلوج فلاقت الجنود الروسية في الصعود على احد سفحيها والانحدار على السفح الآخر مشقات عظيمة واحتل الاعداء صوفيا وبعد قتال عنيف باسل في ممر شبكا انحدر رادستكي بجنوده وامضيت شروط الصلح التمهيدية في ادرنه والروسيون شاهرون السيوف (كما كان في سنة ١٨٢٩)

ثم أمضيت معاهدة في سان استفانو في الثالث من مارس بحضور الجيش الروسي الذي كان معسكراً على ساحل بحر مرمره ولكن الشروط [1] كانت مجحفة بحقوق الدولة ومضرة بها الى درجة تداخل معها اللورد بيكونسفيلد. فكانت نتيجة ذلك أن معاهدة برلين المؤرخة في يونيو سنة ١٨٧٨ الغتها وحلت محلها . وبمعاهدة

---

(١) شروط معاهدة سان استفانو :

(١) تستولي الروسيا على باطوم وقارس من أعمال أرمينية وتأخذ بسارابيا من رومانيا وتعطيها بدلها دبروجه من أعمال بلغاريا

(٢) أن يعترف الباب العالي باستقلال رومانيا والصرب والجبل الاسود ويزيد أراضي كل منهما

(٣) أن يمنح البوسنه والهرسك الاستقلال الاداري تحت اشراف الروسيا والنمسا معاً

(٤) أن تكون بلغاريا امارة مستقلة استقلالا داخلياً تاماً مع قيامها بدفع الجزية للسلطان وان تكون حدودها من الطونه الى بحر الارخبيل فتدخل فيها أرض بلغاريا الحقيقية والروملي الشرقية ومقدونيا ويكون عليها أمير منتخب وفيها مجلس نيابي من أهلها ويشرف على سير الاعمال الادارية فيها قوميسير عالي روسي يؤيده ٥٠ ألفاً من الجنود مدة سنتين

(٥) هدم وازالة جميع الحصون والمعاقل العثمانية المقامة على الطونه واصلاح حكم وادارة البانيا وتساليا وغيرها من أقاليم تركيا في أوربا مع تعهد الدولة العثمانية باجراء الاصلاح في ارمينية من غير ابطاء

برلين التي تسجل تقسيم تركيا بموافقة اوربا رغم مواثيق وعهود سنة ١٨٥٦ اعترف باستقلال الصرب والجبل الاسود ورومانيا وخلقت امارة دعوها امارة البلغار وجعلوها قسمين احدهما يتمتع بالحكم الذاتي والثاني جعل تحت حكم الدولة العثمانية وأعطيت تساليا لليونان واستعادت روسيا اقليم بسارابيا الذي انتزع منها سنة ١٨٥٦ كما انها استبقت فتوحاتها في آسيا وهي قارس وباطوم واردهان . وفي مقابل مساعي انكلتره في هذا التعديل استولت على جزيرة قبرص مع بقاء سيادة السلطان ودفع الجزية السنوية

وهكذا انقصت تركيا الى المساحة المحدودة الضيقة النطاق التي كانت لها الى ما قبل الحرب البلقانيـة . ولقد كانت باتساعها القديم ايام كان الباب العالي لا يقتصر في حكمه على الاقليم الضيق المعروف الآن بتركيـة اوروبا بل يحكم ايضاً اليونان وبلغاريا والروملي الشرقية ورومانيا والصرب والبشناق والهرسك والقرم وبعض روسيا الجنوبية وآسيا الصغرى الى حدود الفرس ومصر والشام وطرابلس وتونس والجزائر وارخبيل البحر الابيض المتوسط ـ بصرف النظر عن بلاد العرب ذات الجهات الصحراوية والمساحة العظيمة ـ تأوي من السكان ما يزيد عن ٥٠ مليوناً في اراض تزيد مساحتها عن مليونين من الاميال المربعة اي قدر اوربا ما عدا الروسيا مرتين تقريباً . فانتزعت منهـا ايالاتها واحدة بعـد أخرى وصار عزها القديم في خبر كان . ومع ذلك فان من الانكليز من لا يزال يذهب بالتفاؤل الى حـد القول بامكان نهضة المسلمين نهضة عامة في المستقبل بزعامة خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين نهضة ترجع بها الى الدين عزته والى الاسلام سطوته والى العيش نضارته وغضارته ويكون الترك كما كانوا شعباً ساذجاً على الفطرة السليمة والاخلاق الكريمة ترتكز فيه مكارم الخلال ومحاسن الخصال على عزم اثبت من الجبال وامضى من النصال ويلتقي في صدره اباء النفس بشدة البأس وطهارة الابرار بشهامة الاحرار. ويقول اولئك المتفاءلون ان في طبيعة الشعب التركي استعداداً للرقي وقبولا للنهوض وانه لا يعوزه الا مرشـد يهديه ويقوده وعبقري يصلح من سائر شؤونه وان الامل قوي بان الهلال الذي نما نموه فصار بدراً وعاد محاقا يمكن ان يصير بعد المحاق هلالاً وبعد الهلال بدراً يذر نوره على الخافقين وان للدهر لدورة وفي حوادث الزمان لعبرة

الفصل الخامس

الانقلاب العثماني

استبداد عبد الحميد الثاني ـ الغاء الدستور ـ رجال المابين والجواسيس ـ الفتك بالارباء ـ المهاجرة ـ ثورة الارمن ـ المذابح الارمنية ـ عطف أوربا على الارمن ـ دسائس الجمعيات الارمنية ـ اعتداء الارمن ـ الثورة في حوران وكريت ـ دسائس اليونان ـ حرب الترك واليونان ـ انتصار أدهم باشا ـ مشكلة كريت ـ ثورة اليمن ـ انشاء سكة حديد الحجاز ـ المسئلة المقدونية ـ تعدد الجنسيات في مقدونيا ـ اعمال العصابات ـ مشروع مرزتج ـ نشأة الحرية العثمانية ـ تأثير آداب اللغات الغربية ـ رأي المستر جب ـ تركيا الفتاة ـ ازدياد وطأة استبداد المابين ـ جمعية الاتحاد والترقي ـ انتشار الافكار الثورية في الجيش ـ المطالبة بالدستور ـ الابتهاج باعادته ـ اوربا بعد اعادة الدستور التركي ـ سلطة جمعية الاتحاد والترقي ـ خيانة عبد الحميد للدستور ـ خلعه وتولية السلطان محمد الخامس .

كان اكثر الناس تطوحاً وراء الآمال والاماني واشدهم تفاؤلاً بالخير وحسن المستقبل للدولة العلية العثمانية واكبرهم رجاء بتقدمها ورقيها في مآلها اقلهم ثقة بامكان حصولها على يسير الاصلاح وضئيل الفلاح على يد السلطان عبد الحميد الثاني الذي بدلاً من أن يعمل على ما فيه سد الثلمة ورأب الصدع وتقويم المعوج ودفع الاطماع الناشبة أظفارها في جسم الدولة من كل الجهات بما يتخذه من الوسائط لنشر العلوم والمعارف وتسهيل سبل التجارة والاخذ بيد الصناعة والعناية بالزراعة مع دفع الاقوياء عن الضعفاء بسلاح العدالة وبذل الاحسان والرفق لسائر صنوف الرعايا لا فرق بين غني وفقير عظيم وحقير مسلم ونصراني عربي وتركي وكردي وأرمني بحيث تكون الدولة كتلة واحدة تستطيع استجماع قوتها لاستعادة بعض ما فقدته بمعاهدة برلين وغيرها تفنن في استنباط وسائط الاستبداد الغاشم وعمي عن كل شيء الا عن المحافظة على حياته ولو ماتت بسبب توهم الخطر عليها الالوف من رعاياه التعساء . فلقد بدأ سلسلة سيئاته بالغاء الدستور الذي رتب قواعده أبو الحرية العثمانية المأسوف عليه مدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤) ثم جعل مقاليد الامور جميعها في يد جماعة من حاشية السراي ممن اشربوا حب السياسة الرجعية ومهروا في تطبيقها على نحو يعود بالبلاد القهقرى بسرعة عظيمة . وفقد الباب العالي أو الوزارة الاسمية كل شيء من النفوذ والسلطة وأصبح الوزراء بل وسفراء الدول الاوربية ايضاً ألعوبة في يد

السلطان عبد الحميد . ولقد جمع صنائعه ومن اصطفاهم للقيام باعمال الادارة وشؤون الحكم القناطير المقنطرة من الاموال وغنموا المغانم العظيمة من وراء خوف السلطان وهلعه من القتل غدراً وكان له من الجواسيس جيش جرار كان على ما يقال يصرف عليه ألف الف من الجنيهات سنوياً وغصت الدولة من اقصاها الى اقصاها بالعيون والرصاد فما سلمت دار آمنة أو جماعة هادئة من تسرب العيون اليها واندساسهم فيها يعكرون عليها صفوها ويدسون عليها من الوشايات والسعايات ما يذل به عزيزها وتوطأ به حرماتها وتقفر به عرصاتها وتخبو به نارها وينطفىء به سراجها فامتلأت السجون

مدحت باشا

بالناس من سائر الارجاء واتخمت بطون الاسماك في قعر البوسفور بلحوم الابرياء . وكان السعيد من وفق الى الهجرة عن بلاد آبائه وأجداده الى حيث يشم نسيم الحرية بعيداً عن مواطن التهلكة ومراتع العبودية . فخلت البلاد من ساكنيها وعفت الدساكر من قاطنيها وأصبحت العواصم بلاقع والثغور دوامع. وكان الناس متساوون كاسنان المشط امام تعسف عبد الحميد وظلمه فلم يرحم مسلماً ولم يرث لحال نصراني لا التركي كان له من جنسيته شفيع ولم يكن للارمني في رحمته مطمع . فكان حكم

المابين الذي ملك على السلطان اذنه من شر ما ابتلى به العثمانيون من العذاب ومن أفظع ما ورد على البشر من صنوف التجبر والارهاب وامتدت يده الثقيلة القاسية الى سائر الاعمال فكانت أمور المالية والجيش والشرطة وسائر المخابرات الدولية تدبر داخل السراي وأصبح الوزراء ولا حول لهم ولا قوة في الصغير والكبير من الامور

وكان للدول الاوربية حق التداخل بما خولتها اتفاقات باريس وبرلين ولكنها كانت تخشى ان ينفتح باب التنافس والتزاحم ويدخل منه الشر والحرب والمنازعات الدولية ولذلك آثرت الصمت واعتصمت بالاناة . على ان الامور سارت من ردىء الى أردأ منه وأقلق الدول خوفها على زوال الامتيازات التي سعوا في الحصول عليها من جملة من السلاطين العثمانيين لتأمين جانب رعاياهم المسيحيين لانهم رأوا أن اعوان عبد الحميد يسلبون العناصر غير الاسلامية حقوقاً كانت لهم ويطالبونهم بواجبات لم تكن عليهم . لذلك تظاهر الارمن سنة ١٨٩٠ فرأى ولاة الامور في تظاهرهم خروجاً على الدولة وانكاراً لسيادتها يعاقبون عليه بشدة عظيمة لا ترحم ولكن الارمن لم تقمع حدتهم لاول وهلة مع انهم من الطوائف المسالمة المتساهلة الداجنة . على أن السلطان لذلك ركب في توقيع العقاب عليهم متن الشطط وقسى عليهم قسوة عظيمة وذبح منهم في سوسان وغيرها سنة ١٨٩٤ خلقاً كثيرين تجرعوا غصص انصياعهم لتحريض الجمعيات الارمنية المحتمية بحمى لندرة وباريس . ومما هو جدير بالذكر ان الارمن غير محبوبين من الاوربيين لان هؤلاء يرون فيهم عيوباً أخلاقية تربو على ما لهم من السجايا والمزايا الكريمة ولم يكن لهم من شفيع لدى المتنطعين والمتعصبين من الغربيين غير تدينهم بنوع من الديانة المسيحية يكفل لهم تحيز وعطف وشفقة أولئك الذين يحكمون في الامور من غير روية فيعتقدون أن الدولة لم تنكل بهم الا لانهم مسيحيون . وتأثرت الدول والحكومات بالرأي العام الابله الجاهل فانبرت لمد يد المساعدة للارمن وتألفت لجان التحقيق سنة ١٨٩٥ ونشرت الكتب الزرقاء الرسمية . وبينما كانت اوربا تسعى في اصلاح الاحوال كانت الجمعيات الارمنية البعيدة عن الخطر ترمي الحطب على الفتن الارمنية فتزيدها اشتعالاً وتدفع بالارمن الى أتون النار وهي بعيدة عن الاخطار فقد قيل ان السفطاء وطلبة العلوم الدينية قتلوا من الارمن جماً غفيراً لما ظهر من هؤلاء من العناد والقحة بتحريض تلك الجمعيات البعيدة التي نفثت سمومها في سكان بتليس واذربيجان وزينون وغيرها من بلاد آسيا

الصغرى فجنوا على انفسهم وقامت المذابح بين ظهرانيهم على ساق وقدم

وليس أدل على حب الارمن للمشاغبة ورغبتهم في الفتن وتحرشهم بمواطنيهم من رميهم القنابل على البنك العثماني في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٦ فان عملهم هذا أسخط عليهم سائر العقلاء من كافة الملل والنحل ولم يجسر أشد الناس اعجاباً بهم على التماس المعاذير لهم . ولذلك جازاهم سكان العاصمة بجنس عملهم فقتلوا منهم على ما يقال ٣٠٠٠ وأرغموا سبعة أمثال هذا العدد على مبارحة البلاد . وصم الباب العالي اذنه عن سماع الاحتجاجات كما انه لم يقم بتنفيذ ما طلبته الدول من صنوف الاصلاح

ولم ينفرد الارمن بالقيام في وجه الدولة فقد ثار الدروز في حوران وقامت ثورتهم

ادهم باشا

واشتد الهياج في جزيرة كريت فسعت الدول العظمى لدى السلطان في تعيين حاكم مسيحي لها مع انشاء مجلس نيابي واعلان العفو العام عن العصاة والمجرمين السياسيين. على أن اهل كريت ما برحوا يثورون ويتمردون ويعصون بتحريض مملكة اليونان ودسائسها ومساعداتها بالمال والرجال حتى نفد صبر الدولة وأعلنت الحرب التي اكتسح فيها أدهم باشا تساليا في ابريل سنة ١٨٩٧ وأدب فيها المحرضين والدساسين وضرب على أيديهم بحيث لم يحل ديسمبر من السنة نفسها حتى اضطرت أثينا الى طلب الصلح وهي صاغرة . ولا عجب فان اليونان لم يكونوا يوماً من الايام انداد الترك الاشاوس في

الحرب ونظراءهم في ضروب البسالة وفنون القتال . على أن كريت بقيت مع ذلك شجى في حلق السياسة الدولية وذهبت أتعابها في حل المسألة الكريتية ادراج الرياح ولم يستتب شيء من النظام الا بفضل قواد أساطيل انكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا. واخيراً اضطرت الجنود التركية الى الجلاء عن الجزيرة في نوفمبر سنة ١٨٩٧ وغادرتها على رغم أنف السلطان وتعين الامير اليوناني جورج حاكماً عليها وباستعفائه سنة ١٩٠٦ وتعيين المسيو زايميس خلفاً له صارت كريت في الواقع جزءاً من المملكة اليونانية

وكان الدولة قد قدر لها في ذلك الوقت أن لا تخلص من ورطة حتى تقع في شر منها وذلك أن اهل اليمن قاموا قومة رجل واحد يريدون التخلص من السيادة التركية وكان عليهم من حكام الترك رجل يقال له احمد فيضي باشا لم يعرف عنه انه سعى في اصلاح ذات البين بين الدولة ورعاياها أو عمل على نشر العدل والامن في ربوع البلاد. فارسلت اليهم الدولة الجيوش سنة ١٨٩٨ فعجزت عن تأديبهم واستمرت نيران الفتن مشتعلة لغاية سنة ١٩٠٥ وفيها استولى فيضي باشا على صنعاء ولكنه اضطر الى التخلي عنها في السنة التالية لتعذر الامداد والمساعدة من القسطنطينية. ولم تكن هذه الثورات العربية الكثيرة لتستفيد منها الدولة الا تنبهها الى وجوب انشاء سكك حديدية تربط بها أجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف ولذلك أجاز السلطان انشاء خط من دمشق الى الحجاز فابتدأ العمل فيه من ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٠ ووصلوا به الى المدينة المنورة بهمة وسرعة غير عاديتين في صيف سنة ١٩٠٨ هذا وان فوائد السكة الحجازية لا يمكن أن تخفى على أحد خصوصاً متى تم اتصالها بخطوط الاناضول وخط بغداد الواصل الى القسطنطينية . ولا شك ايضاً أن وجود خط الحجاز يسهل الحج على مريديه ويجمع المسلمين على اختلاف مساكنهم وتباعد مواطنهم كل عام في صعيد واحد فتزداد الاخوة الاسلامية ارتباطاً والجامعة المحمدية وثوقاً وتم أمنية عبد الحميد الثاني ويستطاع بواسطتها دوام حشد الجنود فتشترك مع سكة حديد بغداد في نقل الانفار من ابعد جهات السلطنة حيث يعلمون ويدربون ويكون بهم عز الدولة وبأسها كما ان بالسكك الحديدية العثمانية يتيسر تنظيم البلاد وتعمير الجهات واقامة اسواق التجارة وتعميم وسائل الحضارة ونقل كنوز الدولة وخيراتها المعدنية والزراعية والحيوانية

الى حيث يمكن الانتفاع بها فتمتلىء خزائن الحكومة التركية بالاموال وتحسن الاحوال

على ان كل هذه الاماني ما كان ليمكن تحقيق بعضها مع بقاء حكومة الباب العالي على ما كانت عليه من الفساد والارتباك مما جعلها سخرية العالم ولم تكن لغاية عهد قريب لتظهر رغبة صحيحة او دليلاً نافذاً على الميل الى اصلاح الامور ولم ترد الدول العظمى ان تتداخل تداخلاً فعلياً في اصلاح الدولة مع ان الادلة قامت جملة مرات على ان اظهار شيء من القوة كفيل بتقويم شيء من الاعوجاج

فحكومة الاستانة لما اجترأت سنة ١٩٠١ على فض اكياس البريد الاجنبية المختومة لتوهمها احتوائها على خطابات مريبة تظاهرت الدول بأساطيلها فاعتذرت الدولة وتعهدت أن لا تعود لمثل ما فعلت

ولما رفضت الاستانة التسليم ببعض المطالب الفرنسية ورست السفن الحربية الفرنسية على جزيرة مدلة سنة ١٩٠١ أجيبت سائر المطالب الفرنسية وزيادة بعد مضي ما لا يزيد عن خمسة أيام . وكذلك لما رأت الدول من الضروري تشكيل لجنة دولية لجمع الضرائب وضبط الاموال في مقدونية سيرت أسطولاً مؤلفاً من سفن نمساوية وبريطانية وفرنسية وايطالية وروسية فاحتل مدلة في نوفمبر سنة ١٩٠٥ وأنزل بها جنوداً مختلطة فلم يسع السلطان الا احترام قرار الدول في ديسمبر من السنة نفسها

على ان تداخل الدول بالقوة في شؤون تركيا ما كان ليحصل مرة الا بعد أن تعييها المخابرات والمفاوضات الطويلة وبعد أن ينقضي وقت طويل يعظم فيه هول الاضطراب والفوضى في ارجاء السلطنة السنية . ولما ظهرت المسألة المقدونية كسفت المسألتين الارمنية والكريدية وكان ابتداء استفحال شأنها منذ سنة ١٨٩٨ وقد أعيا حلها اذكى رجال الوزارات الخارجية في أوربا على غير طائل . وقد كان يراد ايجاد ولاية مستقلة فيها بالشؤون الداخلية على نحو ما كانت بلغاريا أو بعبارة اصح على نحو ما كانت الروملي الشرقية قبل أن تستلحقها بلغاريا سنة ١٨٨٥ غير أن مشكلة المشاكل في الموضوع كانت تعدد جنسيات السكان مع طمع وتنافس الممالك المتاخمة أي اليونان وصربيا وبلغاريا . ولقد ظل الاقليم العريض المحصور بين الادرياتي وأدرنه مدة طويلة

وهو فريسة العصابات المتوحشة المسلحة من الارناؤد واليونان والصرب والبلغار وكل عصابة منها مرتبة ومنظمة لا لسوى الانتقام والدفاع وقتل أهل القرى المؤلفة من جنسيات معادية كما أن هـذه العصابات نفسها كانت كثيراً ما تقع بين براثن الجنود التركية . وكانت ولاية مناستير على التخصيص أهم ميدان لفظائع العصابات ومنكراتها فكان مسلموها ومسيحيوها على السواء يشتركون في الفوضى والهياج واليونان والارناؤد من أهليها لا يفتأون يشنون الغارات على الترك والصرب والبلغار من مواطنيهم فكانت تسيل الدماء أنهاراً ويعم الخراب والدمار كل مكان وتعشو عفاريت البوار والاختلال فساداً في سائر الجهات . ولم ينتج عن مشروع الاصلاح المعروف بمشروع مرزنج الذي قدمته بريطانيا والنمسا وروسيا لتركيا سنة ١٩٠٤ ما كان يقدر له من النجاح كما أن المعاهدة المبرمة بين تركيا وبلغاريا في ابريل من السنة نفسها والتي بها تعهدت الثانيـة بمنع الجمعيات الثورية من أن تعمل على النكاية بالاولى في أرضها لم تفلح . وقد وجد أن البوليس الذي الفته أوربا سنة ١٩٠٣ بقيادة زعماء من الاجانب غير كاف لتنفيذ الاصلاح الذي رسمه مشروع مرزنج وان القتال والهياج والمذابح لم تنقطع لحظة واحدة فكانت الخطوة التالية ايجاد رقابة مالية دولية بعد تظاهر الاساطيل الذي سبقت الاشارة اليه سنة ١٩٠٥ على أن كراهة وعداوة الجنسيات المختلفة المؤلفة منها مقدونيا ما كانت لتزيلها مثل هذه الاجراءات بل استمرت المشاحنات جارية مجراها الطبيعي وأهمل شأن البوليس الدولي باحتقار ونخر دود الفساد في جسم النظم القضائية ولم تصدر أحكام رادعة على مرتكبي الجرائم العظيمة وعاثت عصابات الصرب واليونان والبلغار المسلحة في الارض فساداً فكانت تنقض على القرى الآمنة المطمئنة فتشبع اهلها المساكين قتلا ونهباً ثم تلوذ بشعاف الجبال وبطون الصخور بعد ان تفعل كل ما تستطاع من الفحش والمنكر هازئة بالترك والبوليس الدولي واللجنة الدولية غير حاسبة لها حساباً أو خاشية لها بأساً . ولم تقف فظائعها قليلا الا بعد حصول الثورة الدستورية التركية تلك الثورة التي تعد من أعجب الثورات التي حصلت في أوربا والتي يعتبر وقوعها أبهر ما وقع في تركيـا من الحوادث

نشأت ونمت في أرض تركيا حركة فـكرية كان يغذيها ويسقيها ويتعهدها بالعناية جماعة من اذكياء العثمانيين الغرباء وكان لا بد لهـذه الحركة من نتائج سياسية تنجم عنها كما ان تأثير نتائجها كان لا بد يكون عظيما

وسبق العلامة المأسوف عليه المستر (جب) غيره من حكماء الاوربيين الى التنبوء بما سيكون لتلك النهضة الفكرية العثمانيـة من الشأن العظيم وذلك لان اهتمامه الفائق بدرس الآداب العثمانية وحسن معرفته بها اضطرته الى الاختلاط بادباء الترك وكبار مفكريهم وقادة آرائهم . وقد انفرد بنفسه بين سائر البريطانيين بدقة تقدير ما كان يختمر برؤوس أفراد ذلك الشعب الذي كان يحب آدابه محبة عظيمة ذهبت به الى وقف كل ساعة من ساعات حياته القصيرة على خدمتها كما أنه كان اكبر الاوربيين أملاً بنهضة وارتقاء الامة التركية . ولقد ابان كيف أن منتصف القرن التاسع عشر قد شهد تأثير آداب لغات الغربيين في التعليم والتربية وكيف ان جماعة من أذكياء شبان الترك لم يكادوا يشرعون في تعلم الفرنسية لضرورة كونها لغـة السياسة حتى تعشقوا آدابها واستهوتهم افكارها فخلبتهم الفاظها الشائقة واستعبدتهم معانيها الرائقة وفتنهم ما وجدوا فيها من العذوبة الساحرة وبهرهم ما عثروا عليه في كتبها من آثار البلاغة الظاهرة فنسوا مرارة الغربة بحلاوتها واستصغروا كل طلي في جانب طلاوتها . وبعد أن كان الترك الذين يعرفون الفرنسية قبل سنة ١٨٥٠ يعدون عداً لقلتهم أصبح كل رجل وامرأة بعد ذلك تدعي أنها على شيء من التعليم والتربية تعرف شيئاً من تلك اللغة قراءة وتحادثاً بقليل أو بكثير من الصعوبة . وقد ترجمت في السنوات الاخيرة الى التركية كتب ومؤلفات فرنسية لا تحصى في العلوم الطبعية والموضوعات الادبية بحيث تمكن الذين يجهلون اللغات الاوربية أو لا يعرفونها معرفة تامة جيدة من الوقوف على درجة التفكير الاوربي وقـد أصبح علماء الترك وأدباؤهم يسيرون على النهج الفرنسي في الفلسفة والتمثيل والروايات التمثيلية وغير التمثيلية والشعر . وكان مقدام هذه الحركة المباركة شناسي افندي الذي تعلم وتثقف في باريس ونقل سنة ١٨٥٩ شيئاً كثيراً من الشعر الفرنسي ثم أنشأ في القسطنطينية جريدة لترويج واذاعة الآراء الاوربية وقد عضده التركيان الالمعيان كمال وضياء بحيث انه في سنة ١٨٧٦ وأيضاً في سنة ١٨٧٥ أقلقت الافكار الحرة العصرية التي انتشرت في طول البلاد وعرضها بال الحكومة العثمانية وأزعجتها كثيراً فاتخذت كل الاجراءآت الشديدة لمصادرتها وتوقيف تيارها ومعارضة نفوذها والضرب على ايدي اربابها ومروجيها ومعاقبتهم بالنفي الى ممالك أوروبا الغربية . ولما مات اولئك الزعماء طيب الله ثراهم وعطر ارض منفاهم خيل للناس ان النصر النهائي كان لارباب القديم الرجعيين وان حركة الحرية

الفكرية الآيلة الى الحرية السياسية حتما قد دقت عنقها

على ان هذا الوهم لم يبد للاديب الاسكوتلاندي نعني به المستر جب المشار اليه صديق الترك واللغة التركية . لانه لم يكن اعلم منه انسان خارج عن دائرة تركيا الفتاة بحقيقة الحال . فكان يعتقد ان الحركة لم تنقطع جذورها وانها عاملة مستمرة في بطء وخفاء وانها لا بد يوماً تظهر وتتغلب على رجال المابين المتحكمين في شؤون الدولة وادارتها كما انها لا بد تقلل من تأثير علماء الشرع الجامدين وقد جاءت الايام بما دل انه كان على حق فيما يعتقد وليس ادل على اعتقاده ذلك من قوله[1] «لقد تغيرت احوال تركيا الاخلاقية والفكرية تغيراً ظاهراً وهذا التغير وان لم تبد له نتائج فعلية الى الآن الا ان الدلائل قائمة على وجوده في كل مكان فقد نشأ عند الترك مدلول جديد للفظ واجب وكان الدين في سالف الزمان هو الكل في الكل ولم يكن التركي في سابق امره ليعلم غير انه مسلم وكفى فلم تكن لديه فكرة الجنسية على الاطلاق. ولذلك كان اذا سار الى الحرب لا يسير لاعلاء شأن او توسيع حدود تركيا بل قضاء لشهوة الفتح والسيادة أو على الخصوص قهراً للكافرين والمشركين واذلالهم تحت اقدام عباد الله المخلصين المؤمنين . وكذلك لم يكن لديه للوطنية معنى مثل المعنى المعهود لدى الفرنجة ولم يكن ليفرق بين الموت في سبيل الوطن أو الموت في سبيل خط الزوال

« أما الآن فقد تناول التغيير هذا الموضوع أيضاً واصبح اتراك اليوم لا يقدسون شيئاً او يحبون امراً حبهم لوطنهم . وحملهم حب التغيير والاصلاح على جعل لفظ «ملت» يدل لا على الجماعة الذين يدينون بدين واحد أو يتعلقون باهداب مذهب واحد بل على الشعب أو الامة . ولا ينبغي أن ننسى اللفظ الثالث الذي جعلوا له معنى جديداً غالي القيمة عظيم الاعتبار وجعلوه يؤلف مع اللفظين المتقدمين وهما « وطن ـ ملت» الثالوث السياسي الذي يعبده شبان الترك ويسجدون له ونعني بهذا اللفظ « حريت» . والالفاظ الثلاثة هي الالفاظ التي تداولها الترك من يوم ان فكروا في ترك القديم الضار ونقل الحديث الصالح وهم يتوارثون معانيها السامية كابراً عن كابر ويعتقدون ان نهضة واصلاح الدولة التركية لا تكون الا بنقش هذه الالفاظ الثلاثة على صفحات الصدور. ولذلك راح كثير من اذكياء الترك ومفكريهم شهداء اذاعة هذه المبادىء الحديثة بعد ان فازوا بتعميمها بين جماهير مواطنيهم فكان الانقلاب الفكري العثماني من اكثر

(١) في كتابه الشعر التركي

حوادث الايام الاخيرة خطورة وأهمية وغرابة . وساعد على تقوية هذه الحركة المباركة فشو التعليم والتربية بين سائر الطبقات ذكوراً واناثاً وانزوت تلقاء ذلك الخرافات القديمة التي ألصقوها بالدين ظلماً كما انزوت خرافات المسيحية في ممالك اوربا أمام قوة العلوم الطبيعية وسائر ضروب الفنون وصنوف المعارف الحيوية النافعة . صحيح ان الافندي العصري من الاتراك اليوم لا يزال يعتبر نفسه مسلماً ولكنه لا يزيد في تعلقه بالاسلام عن تعلق متنوري الفرنجة بالديانة المسيحية

« فانت ترى أنه في عشرين سنة (من ١٨٥٩ ـ ١٨٧٩) قد انتقلت تركيا من حال الى حال ، من حضارة شرقية قديمة الى حضارة غربية عصرية . لقد ادت سائر الحوادث التي سبقت أيام السلطان سليم الشهيد الى حدوث الثورة الفكرية التي نحن بصددها ولا يعلم الا الله ماذا يكون من امرها بعد ذلك »

ونحن نزيد على ما تقدم قولنا انه قد مضت عشرون عاماً اخرى قبل ان تحقق الآمال الحلوة اللذيذة التي كان يرجوها ذلك الاسكوتلانديّ العالم ـ عشرون سنة من الاضطهاد والعذاب والقنوط بل الركود الآسن . ولكن الحقيقة ان تركيا الفتاة كانت تستجمع قواها في خفاء وصمت وان المنفيين في باريس وجنيف ورومية ولندرة لم يكونوا عبارة عن ادباء فقط لهم افكار وآمال سابقة كثيراً لاوانها بل كانوا متشرعين وأساتذة في الطب والعلوم الطبيعية منضماً اليهم جماعة من الاعيان أيضاً والكل مشتركون في مقت وكراهة حاشية السراي التي ملكت على السلطان اذنيه . وقد بدأوا بنشرون من سنة ١٨٩٥ المطاعن في حكومة الاستانة لذلك العهد فكانوا كلما زادوا في التنديد بها زادت في منع مطبوعاتهم من دخول البلاد وضاعفت الحكومة عدد الجواسيس وعملت احصاء دقيقاً للسكان وأمرت بحجز كل ما يرد على الجمارك من الكتب والنشرات . وفي سنة ١٩٠١ أمرت كل اسرة تركية جعلت في خدمتها معلماً او مربية افرنكية باقالتها وطردها في الحال واشتد الضيق الى درجة آثر معها الالوف هجرة الاوطان على البقاء بدار الذل والهوان وفضلوا شم الحرية الفكرية والقولية في بلاد الغربة على الاسر والقيد في مسقط الرأس . ولكن محال على كل حال أن ينال التضييق منالا من التعليم والتربية الحديثة اذا اشرب كل منهما الافكار الاوربية العصرية . فالتعليم العالي رغب الناس في الحرية والمساواة الاجتماعية من غير اعتبار جنسية او عقيدة . لذلك ثابر شبان تركيا الفتاة على تهريب مطبوعاتهم ومؤلفاتهم ودس

رسلهم ودعاتهم في كافة أنحاء السلطنة

وليس من السهل تحديد المسؤولية الواقعة عليهم في المشاكل المقدونية ولكن من الواضح انهم اجتهدوا في جذب الجيش الى جانبهم . وكان تذمر الجنود العائدة من الحملات العربية غير مدفوعة رواتبها غير معتنى بغذائها منهوكة القوى من متاعب الحروب في الصحراوات خير ارض خصبة لالقاء بذور الثورة والتمرد . وقد تم هذا

نيازي بك

اولا بنجاح في بلاد الاناضول فقامت العساكر بمظاهرات على غاية النظام والاحكام ولم يحصل من تظاهرهم مذابح أو مشاغبات أو خلافات مذهبية بل كانت حركتهم مقدمة لتلك الثورة الهادئة التي احكمت تدبيرها وأحسنت تسييرها جمعية تركيا الفتاة

وكانت الحرب اليابانية قد حملت العثمانيين على الاعتقاد بان المستقبل للاسيويين فانبرت الفرس الى التعلق باهداب النظام الدستوري وكان لا بد لتركيا من السير في أثرها وكانت كل طبقات العثمانيين شاعرة بضرورة حصول ثورة الا طبقة المابين التي

أحاطت بعبد الحميد في قصره من كل جانب كما يحيط بالعنكبوت النسيج الذي ينسجه

وكانت قد تألفت في جنيف سنة ١٨٩٠ من رجال تركيا الفتاة جمعية دعوها الاتحاد والترقي انتقلوا بها الى باريس ثم الى سالونيك سنة ١٩٠٦ . وكان مراد الجمعية أن تنادي بنداء الثورة في ٣١ أغسطس وهو يوم عيد جلوس عبد الحميد ولكن الحوادث اضطرتها الى المبادرة بالعمل قبل التاريخ المذكور . وذلك ان الاتحاديين

انور باشا

خشوا تداخل أوربا بعد أن علموا بمقابلة ادورد السابع وقيصر روسيا في « ريفال » . وكان عبدالحميد قد استعد لقمع الفتنة العسكرية التي علم بوجود مقدماتها من جواسيسه . وكان الاتحاديون قد اكتسبوا ثقة الالبانيين وعطفهم بعد أن أقنعوهم بعدم فائدة التعدي على النمسويين الذين يريدون جمع الاعانات وعمل الاحتفالات لمدرستهم في اسكوب. وكان الالبانيون يريدون محافظة على قواعد الآداب منع اقامة المراقص والمفاسق

المنوي اقامتها لهذا الغرض ومهاجمة القطار المقل للمحتفلين ومنع نشر الاعلام النمساوية في أرض عثمانية فانصاعوا الى مقالة اخوانهم في العثمانية وعلموا ان مثل ذلك التحرش برعايا دولة قوية طامعة لا يكون من ورائه الا الاحتلال النمسوي ثم انضموا اليهم وكتبوا جميعاً تلغرافاً الى السلطان يطلبون اعادة تنفيذ دستور سنة ١٨٧٦ . وكانت حوادث تجري في غضون ذلك تدل على انتشار الثورة بين الضباط والجنود الذين قتلوا بعضاً من الضباط الرجعيين وقام نيازي وأنور بالنداء للدستور وتعين سعيد باشا كوچوك

سعيد باشا كوجوك

صدراً أعظم في الثاني والعشرين من يوليو . وفي الرابع والعشرين نشر السلطان ارادة سنية باعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦ الذي أوقف العمل به منذ سنة ١٨٧٨ . وقد ألغيت في الحال الرقابة على المطبوعات وابطلت أنظمة الجواسيس ودعي مجلس مؤلف من ٢٠ عضواً ينتخبهم مندوبون كل مندوب منهم يختاره جماعة من الذكور البالغين الذين لا يقل عمر أحدهم عن ٢٥ سنة . ولا تسل عن الفرح والسرور الذي شمل السلطنة من أقصاها الى أقصاها باعادة العمل بالدستور فقد تآخت عناصرها المختلفة

وتحالفت جنسياتها المتباينة وتصافى أتراكها وبلغاريوها وأروامها ورومانيوها ويهودها ومسلموها وزالت سائر الفروق وجعل الناس لا يعرفون تحت سماء البلاد غير لفظ عثماني وتعانق في جهات كثيرة الشيخ والقسيس كما ان زعماء العصابات المقدونية أخلدوا الى الدعة والسكينة بعد طول الهياج والشغب وصفقت أوربا طرباً واعجاباً بحدوث ما حدث من غير اراقة دماء تذكر وصرحت انكلترا بلسان وزير خارجيتها السير ادورد غراي بأن المسئلة المقدونية وما شاكلها من المسائل قد اختفت نهائياً

كامل باشا

بظهور الدستور ورحب أحرار البريطانيين بالنظام العثماني الجديد . وجرت جملة مظاهرات ابتهاج وغبطة في كل مكان وابعد الاتحاديون عزت باشا العابد وأقالوا وزارة سعيد كوچوك وجعلوا كامل باشا عوضاً عنه وصادروا أملاك الذين انتفعوا بمبادىء الحكم الحميدي القديم . ووثقت بهم دول اوربا بحيث ألغت رقابتها الاجنبية عن مقدونيا فاستدعت ضباط الجندرمة ورجال اللجنة المالية وتركت سائر أمور الدولة لحكمة جمعية الاتحاد والترقي وفطنتها

غير أن دولتين من دول اوربا انتهزتا فرصة اضطراب الاحوال في الدولة

وأعلنت الاولى منهما وهي بلغاريا في الخامس من اكتوبر سنة ١٩٠٨ استقلالها ونادت في طرنوه بامبرها قيصراً عاماً على البلغاريين كما أعلنت ثانيتهما وهي النمسا بعد ذلك بيومين استلحاق البوسنه والهرسك نهائياً بعد أن خشيت تأثير الدستور العثماني

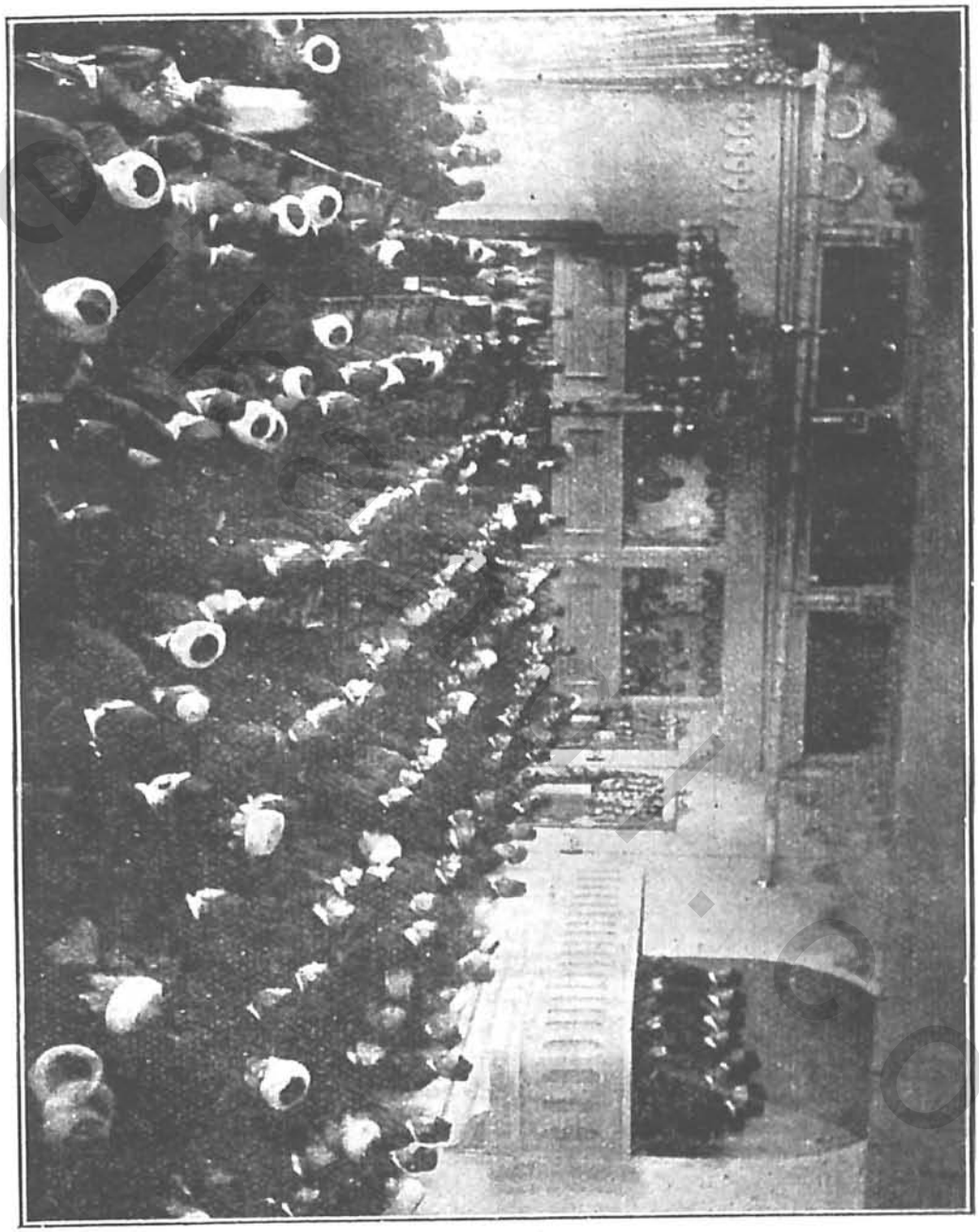

افتتاح مجلس المبعوثان

في تينك الولايتين. وقد أغضب عمل الولايتين المذكورتين صربيا والجبل الاسود وجعل الثاني يتهدد الدول بأنه تلقاء فعل بلغاريا والنمسا أصبح غير مقيد بالمادة ٢٩ من معاهدة برلين فيما يتعلق بميناء انتيفاري وقابلت تركيا ذلك بالاحتجاج وبمقاطعة البضائع

النمساوية دون ان تستطيع الظهور بمظهر القوة والدفاع عن حقوقها بالسلاح . ثم انهمكت في أعمال حكومتها البرلمانية فتمت الانتخابات وافتتح السلطان مجلس المبعوثان في العاشر من دسمبر واعلن فيه اخلاصه الدائم للدستور وأشار الى تعدي النمسا « ووالي ولاية الروملي » . وجعلت جمعية الاتحاد والترقي تظهر قليلاً قليلاً بمظهر صاحب السلطة والامر والنهي فاقالت كامل باشا انتقاماً منه لانه طرد وزيري

شوكت باشا

الحربية والبحرية وهما من رجالها . الا ان جمعية اللامركزية برئاسة اسماعيل كمال بك تصدت لها كما ان ثورة رجعية قامت في ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ في الاستانة بتحريض ودسائس عبد الحميد وبمعاونة الرجعيين وانصار الحال القديمة واحتل جماعة من الجنود قصر مجلس المبعوثان وقتلوا بعضاً من ضباط الجمعية وتغيرت الوزارة وقتل بعض الوزراء ومع ذلك عفا السلطان عن رجال الحركة الرجعية في الاستانة كما اغمض العين على حوادث الارمن اذ ذاك فقامت المذابح فيهم في كيليكيا على ساق وقدم

ولذلك عزم رجال جمعية الاتحاد والترقي على معاقبته ومحاسبته حساباً عسيراً . فلما وصلت الاخبار الى سالونيك زحف المرحوم محمود شوكت باشا بجنوده الالبان على

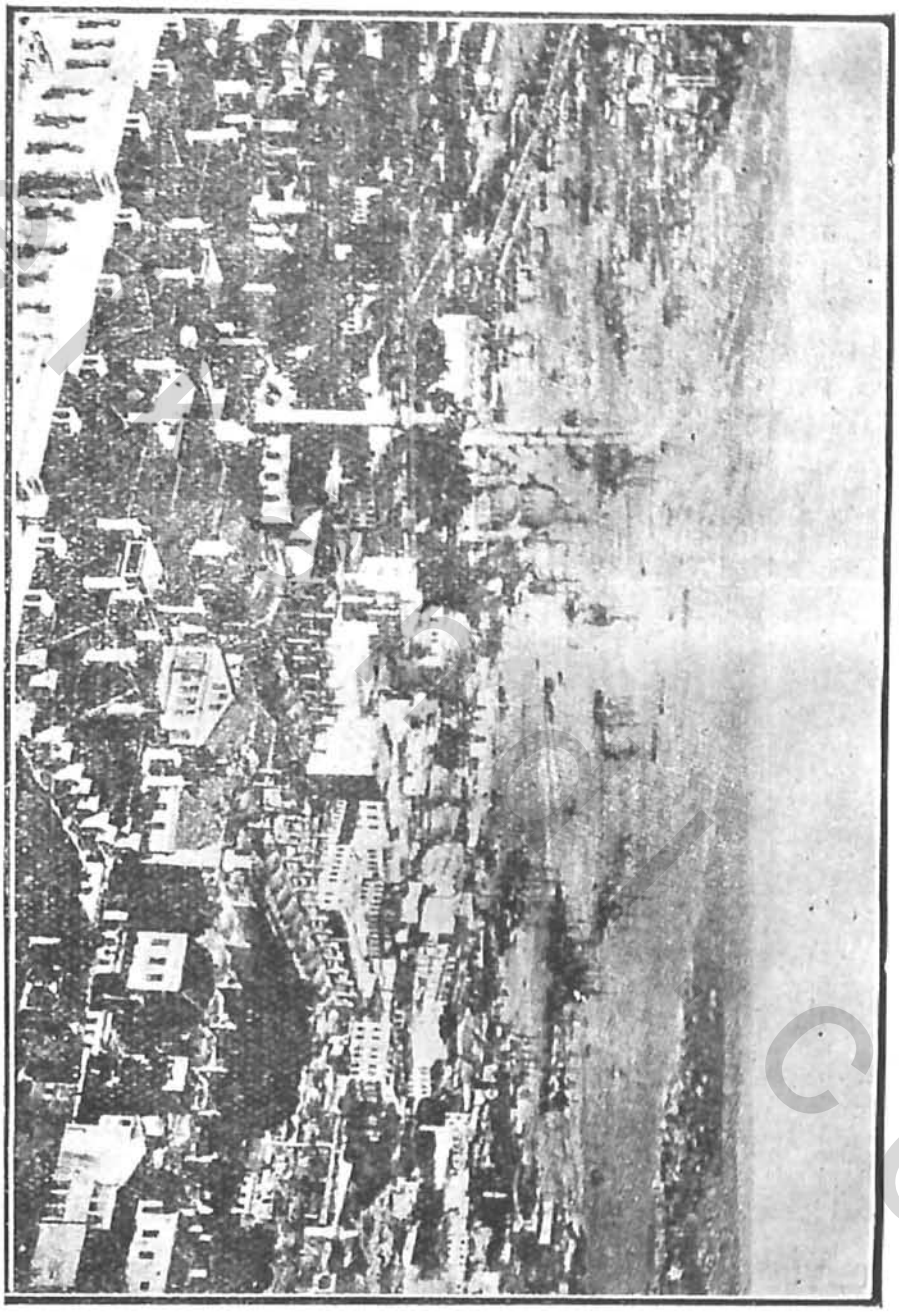

الاستانة مطمح ابصار السياسة الاوربية

الاستانة لحماية الدستور الذي حلف يمين الطاعة له واجتمع اعضاء مجلس الاعيان واعضاء مجلس المبعوثان في سان اسطفان بهيئة جمعية اهلية وقرروا وجوب اطاعة أوامر هذا القائد وكان يريد نشر الاحكام العرفية ومعاقبة الرجعيين وتقليل حرس

القسطنطينية وكان قد انضم غالبه الى اعداء الدستور . فلما اجيب الى ما طلب دخل العاصمة في الخامس والعشرين من ابريل واشتبكت جنوده خمس ساعات بجنود انصار الاستبداد القديم اولئك الذين كانوا اولا أحراراً ارسلتهم الجمعية من سلانيك للحلول محل حرس السلطان الاقدمين من الالبانيين فما عتموا ان صاروا رجعيين بتأثير عبد الحميد واعوانه . وبعد ان تبودل اطلاق المدافع والبنادق بين رجال الوطن الواحد الذين فرقهم الاهواء شيعاً ومزقهم الاغراض فرقاً نصبت المشانق علناً لاعدام

السلطان محمد الخامس

المحرضين ثم اجتمع اعضاء مجلس الاعيان والمبعوثان واغلقت دونهم الابواب في السابع والعشرين من ابريل وقرأت عليهم الفتوى بخلع عبد الحميد بعد ذكر سائر سيئاته واعماله مما لا ينطبق على نصوص الشرع الشريف فاصدروا قراراً بالاجماع باقالته وتنصيب اخيه محمد رشاد باسم محمد الخامس . وكذلك سقط الداهية الذي ادهش ساسة أوربا ولعب بعقولهم مدة طويلة مع كونه أمعن في ظلم البلاد والعباد وتغالى في ركوب متن التجبر والاستبداد وقد نقلوه من سراي يلدز الى سالونيك ثم نقل منها بعد مدة الى القسطنطينية بعد أن صودرت ذخائره وكنوزه مما قدر بمليون من الجنيهات

الفصل السادس

المسئلة الشرقية واستقلال العناصر

السلطان محمد الخامس – استيلاء النمسا على البوسنه والهرسك – اعلان استقلال بلغاريا – سياسة العناصر – الالبانيون قديماً وحديثاً – مطامع ايطاليا في طرابلس – حرب ايطاليا وتركيا – نقد معاهدة برلين – الحرب البلقانية واسبابها – بلاغ الكونت برختولد – بلاغ البلقانيين النهائي – سير الحرب وانتصار البلقانيين – رأي انكلترة بعد الانتصار – الهدنة – الحرب ثانية – حسن دفاع أدرنه وياننا – الزحف على شاطجة وتهديد الاستانة – شروط الصلح – الحرب بين البلقانيين واسترجاع أدرنه

كان السلطان محمد الخامس طوع اشارة جمعية الاتحاد والترقي ولا عجب فقد كان قليل التجربة غير بصير بامور السياسة وتصريف الامور. جعله اخوه السلطان عبد الحميد رهين قصر لا يبرحه وقد قضى عشرين عاماً من غير أن يطلع على جريدة ! ! واستفتح عهده بثورة الالبانيين الذين أبوا دفع الاموال الاميرية كما ان دعياً من دعاة المهدوية ظهر في اصقاع اليمن. وفي مستهل سنة ١٩٠٩ أمضي الاتفاق التركي النمسوي وبه اعترف الباب العالي باستلحاق النمسا لاقليمي البوسنه والهرسك في مقابل تسلمه سنجق نوفي بازار الذي اخلته الجنود النمسوية واخذ ٢٥٠٠٠٠٠٠ ليرة وقد غاظ الصرب والجبل الاسود ضم البوسنه والهرسك الى النمسا لان غالبية سكانهما من العنصر السلافي الذي كان لهما المطمح في ضم شتاته اليهما. ولم تستطع اوربا مناصرتهما خصوصاً وقد كانت المانيا تؤازر النمسا وانكلترة لا تستطيع مساعدة الصرب باسطولها خوفاً من المانيا ولان الصرب دولة لا ساحل لها والروسيا أضعف من أن تنصر البلقانيين على النمسويين لخروجها من حرب اليابان خائرة القوى

ولما اعلن فرديناند ملك بلغاريا انه مستقل عن تركيا استقلالاً تاماً احتجت تركيا وغضبت فترضتها بلغاريا بـ ٣٢٨٠٠٠٠٠ ليرة فابت واصرت على عوض لا تقل قيمته عن ٥٠٠٠٠٠٠٠ فتداخلت روسيا في الامر واقترحت حلاً فيه رضاء الفريقين وقد كان لروسيا عند تركيا ٧٤ قسطاً سنوياً من أقساط غرامة الحرب الاخيرة التي نشبت بينهما فتنازلت روسيا عن ٤٠ قسطاً يعادل مقدارها الفرق بين العوض الذي تطلبه تركيا من بلغاريا والعوض الذي اقترحت بلغاريا دفعه واقترحت روسيا أن تدفع

لها بلغاريا ال ٣٢٨٠٠٠٠٠ المزمعة الدفع لتركيا في نظير بقية الاقساط المستحقة لروسيا على تركيا ويكون دفع بلغاريا اقساطاً سنوية لا يزيد كل قسط عن ٢٠٠٠٠٠٠ ليرة . وقد سقنا هذه العبارة للقارىء ليستدل منها على مبلغ شغف روسيا بمساعدة البلغانيين واضعاف تركيا تقريباً لاجل حل المسئلة الشرقية

وفي بدء حكم السلطان محمد الخامس ألحّ الكريتيون في الاستقلال عن الدولة العثمانية استقلالاً تاماً نهائياً وقالوا انهم تابعون لليونان وارسلوا نواباً عنهم في مجلس النواب اليوناني وبعد اعتراض تركيا ومفاوضات طويلة بين الدول الحامية للجزيرة ارغم الكريتيون على الاعتراف بسيادة السلطان وتأجل اتصالهم بدولة اليونان الى حين

واساء الاتحاديون سياسة العناصر الغير التركية وخالف القول العمل فاندلعت نيران الثورات في كل مكان خصوصاً في البانيا التي رام أهلوها الاستقلال والانفصال عن تركيا بعد ما علموا ان قهرهم على دفع الاموال الاميرية لا يفيد تحسين أحوالهم فائدة تذكر

والبانيا بلاد يسكنها مليون ومائة واربعون الفاً منهم ثماني مائة الف من المسلمين ومائتان واربعون الفاً من الارثوذكس ومائة الف من الكاثوليك

والالبانيون يختلفون عن سائر العناصر البلقانية بلغتهم واخلاقهم وعاداتهم التي حفظوها على توالي الايام فالالباني او ابن النسر يعبد الشرف ويهوى الحرية ولا يقيم على الضيم فاقل اهانة تلحق به يعقبها انتقام دموي هائل

ولم يشد الالبانيون دولة في زمن من الازمان ولكنهم شوهدوا في جميع الحروب والغزوات فاجتاحوا الشرق مع اسكندر المقدوني وحاربوا الرومانيين مع بيروس وقاتلوا الصقالبة بعد وصولهم الى البلقان واشتركوا مع السلطان مراد في معركة قوصوه ثم انقلبوا على الترك في زمن اسكندر بك الزعيم الالباني الشهير وحاربوهم دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم

وقد رأى السلاطين العثمانيون أن يحسنوا معاملة الالبانيين ويستميلوهم اليهم بالحكمة واللين فاعفوهم من الضرائب والاموال الاميرية وعينوا منهم الصدور العظام واجتنبوا الدخول في شؤونهم الداخلية فتطوع الالبانيون في الجيش العثماني عن طيبة خاطر واعتنق معظمهم الاسلام

وقد ظهرت الفكرة القومية في البانيا في أوائل هـذا القرن وأخذت تنتشر يوماً فيوماً الى أن بلغت حـدها الاقصى أثر اعلان الدستور العثماني فاجتمع بعض زعماء الالبانيين وطلبوا من الحـكومة العثمانية أن تجعل اللغة الالبانيـة اللغة الرسمية في بلادهم ثم عقدوا اجتماعاً آخر في مناستير طلبوا فيه أن تنشأ مدارس جديدة في البانيا وأن تكتب اللغة الالبانية بحروف لاتينية . فارتعدت فرائص الترك من جراء ذلك لانهم أدركوا أن البانيا حصنهم الوحيد في اوربا وأن ابتعادها عنهم يقضي عليهم بالرحيل الى اسيا فرغبوا في القضاء على الفكرة القومية فيها وعهدوا الى بدري باشا والي اشقودره في ذلك الحين في اتخاذ التدابير اللازمة لذلك (سنة ١٩١٠) فاسرع بدري باشا الى تنفيذ أوامر الاستانة ومنع الالبانيين من حمل السلاح في المدن فعدوا ذلك اهانة لهم واعربوا عن استيائهم من سياسة الحـكومة العثمانية ثم عقب ذلك شنق بعض زعماء الالبانيين في الاستانة أثر خلع السلطان عبد الحميد واقرار الحـكومة على أحصاء سكان البانيا توطئة لتجنيدهم وفرض الضرائب عليهم فشقوا عصا الطاعة وجاهروا بالعصيان فجاءهم شوكت طورغود باشا بجيش كبير وقمع ثورتهم بشدة لم يسبق لها مثيل وأصدر أمره بجمع السلاح منهم ولـكن السلاح الذي جمعه كان قديماً وظل السلاح الجديد بين الالبانيين فغنموا أول فرصة سنحت لهم وأعلنوا الثورة هـذه المرة باسم القومية وطلبوا الاستقلال الاداري التام وتدريس اللغة الالبانية وحدها في مدارسهم بعد ما تكتب بالحروف اللاتينية وانفاق الاموال الاميرية كلها على اصلاح بلادهم

وقد انتشرت الفكرة القوميـة بسرعة عظيمة في البانيا فتعدت المفكرين الى جميع طبقات الشعب وحلمت الشبيبة وبعض الزعماء باستقلال البانيا التام وجعلها واسطة لابرام اتفاق بلقاني متين ومحوراً تدور عليه سياسة البلقان المقبلة

وأما الترك فرفضوا اجابة الالبانيين الى مطالبهم وجردوا عليهم حملة كبيرة ولـكنها لم تستطع الثبـات أمامهم فاكرهت على التقهقر الى ما وراء اشقودره. ولما أرسلت الحـكومة طورغود باشا لشد أزر هذه الحملة على الالبانيين الذين في الشمال ثار المردة الذين في الجنوب من اشقودره بشرق واشـترك المسلمون والمسيحيون في الحرب فادركت الحـكومة حرج موقفها ونهجت خطة المسالمة والليان في البانيا فاصدر خليل بك وزير الداخلية العثمانية في ذلك الحين أمراً بفتح المدارس الالبانية وزار السلطان

محمد رشاد سهل قوصوه في ١٦ يونيو سنة ١٩١١ وأصدر عفواً عاماً عن الذين اشتركوا في العصيان وفي ٢١ منه دعا طورغود باشا زعماء الماليسوريين الى اجتماع في توزا فرفضوا ذلك لعدم ثقتهم به ودارت رحى القتال ثانية في ٢٤ يونيو ولكن الماليسوريين الذين رفضوا مفاوضة طورغود باشا لشدة كرههم له كانوا يفاوضون في تلك الاثناء صدر الدين بك معتمد تركيا في شتينه فوعدهم بفتح المدارس المقفلة واصلاح الطرق وادارة بلادهم على اساس اللامركزية مقابل أخلادهم الى السكينة

على أن الترك لم يعنوا بوعودهم هذه المرة أيضاً لانهم كانوا يخشون أن تقتفي العناصر العثمانية أثر الالبانيين في طلب اللامركزية الواسعة فتفاقم الخطب وتكلم سفراء الدول في المسئلة

ولم تكن النمسا لتغض الطرف عن البانيا لانها الطريق التي تؤدي الى البحر والحصن الذي يتوقف عليه صد اطماع الصقالبة ومنع تقدمهم فنشأ عن ذلك تفاقم الخلاف بينها وبين الصقالبة من جهة وبينها وبين ايطاليا من جهة أخرى لان ايطاليا تعد نفسها وارثة الرومانيين ويهمها بحر الادرياتيك دفاعاً عن شواطىء بلادها

وفي شهر مايو سنة ١٩١١ تعكر صفو الصلات بين تركيا والجبل الاسود بسبب التجاء الثائرين الالبان اليه وقررت حكومة تركيا الحرب على حكومة الجبل لولا ظهور روسيا بمظهر المدافع عنه ثم اجازت تركيا لاهل البانيا استقلالاً داخلياً واسع النطاق

ولم تكد تركيا تفرغ من مشاكل الثورة الالبانية حتى ساقت اليها الاقدار مصائب حرب خارجية. وذلك انه كان للايطاليين في طرابلس مطمح من زمان طويل وكانوا يرمقونها بانظارهم منذ استحوذ الفرنسيون على تونس وغلبوا الايطاليين على ملكيتها. قالت ايطاليا ان فرنسا أخذت تونس وانا آخذ طرابلس وهي نصيبي من املاك تركيا الافريقية وقد زعم الايطاليون أن الاتراك اقاموا العقبات امام الايطاليين ولم يرحبوا بهم « في طرابلس حيث رحبوا بغيرهم وانكروا عليهم ما أجابوا سواهم اليه » على أن وزير خارجية ايطاليا كان لغاية ٩ يونيو سنة ١٩١١ يزعم أن سياسة ايطاليا موجهة نحو المحافظة على بقاء الاحوال على ما هي عليه في أمور الدول وانها تؤيد المحافظة على سلامة تركيا واملاكها في أفريقية وغيرها من الجهات. وبعد هذا التصريح بمدة أي في أوائل يوليو زار ولي عهد تركيا مدينة رومية وقوبل فيها بترحاب عظيم

وفضلاً عن ذلك فقد حافظت ايطاليا على ولائها للباب العالي أثناء فتنة البانيا وشددت في منع تهريب السلاح والذخيرة الى الثائرين ولذلك فوجىء العالم ودهش من بلاغ ايطاليا النهائي للحكومة العثمانية المحرر في ٢٦ سبتمبر والذي فيه من أسباب الحرب «حالة الفوضى والاضطراب الضاربة اطنابها في طرابلس وبرقه ومعارضة كل مشروع ايطالي واثارة الفتنة والفوضى على نزلاء الايطاليين» تلك الاسباب التي انكرها كل عاقل منصف في العالم ولم يجد لها أشد الناس مقتاً للدولة العثمانية مبرراً. وكان ملك ايطاليا ورئيس وزرائها السنيور جيولتي على ما يقال لا يريدان حربا ولكن الحزب الوطني الايطالي والعنصر الصقلي في الوزارة والرأي العام ومصرفاً من المصارف التي كان لها العلاقات العظيمة بطرابلس والرغبة في مغالبة الضعيف على ما بيده كل ذلك حمل الحكومة على شهر الحرب وانتهت الحرب في ليبيا ـ وهي التسمية الايطالية لاقليمي برقه وطرابلس ـ بخروج آخر أقليم افريقي تركي من أحضان حكومة الباب العالي وأصدر ملك ايطاليا في ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ أمراً عالياً بانضمام طرابلس وبرقة الى حكومة ايطاليا. على ان الحرب الايطالية الطرابلسية اثرت في أحوال جزائر بحر الارخبيل وكانت حكومة ايطاليا في مفتتح الحرب قد أرسلت الى معتمديها في عواصم البلقان تقول انها مع حربها مع الدولة العثمانية تؤيد بقاء الاحوال في البلقان على ما هي عليه وانها لاتعضد أي حركة يقصد بها الخروج على سيادة تركيا في البلقان. ولما ضرب الاسطول الايطالي ثغري بريفيزا وسان جوانى دي مادوه بمدافعه اعترضت النمسا على ايطاليا وذكرتها باحترام قرارها السابق أي بقاء حال البلقان على ما كان. ولما انبرى حماة برقة وليوث طرابلس وصناديد العرب لحرب ايطاليا وقاموا في وجهها سداً واصلوها ناراً حامية واذاقوها ويلاً ونكالاً وبطأت أعمالها ولم تتقدم الى أبعد من مرمى قذائف اسطولها ضاقت بالحرب ذرعاً وأرادت مضايقة الدولة العثمانية في جهات اخرى فاغرق اسطولها بعض سفن تركية في مياه بيروت وضربت ثكنات الجنود في جزيرة ساموس وفي مدخل الدردنيل بالمدافع. ثم اقتحمت مدخل الدردنيل بقسم من سفن الطوربيد. وفي ابريل ومايو من سنة ١٩١٢ احتلت جزيرتي رودس وكوس وعشر جزائر أخرى صغيرة. فلما رأى سكان الجزائر منها ذلك أرسلوا عنهم مندوبين في مؤتمر عقد في باتموس في ١٧ يونيو وقرروا رغبتهم في الانضمام الى

حكومة اليونان في المستقبل وانهم يقيمون لجزائر بحر الارخبيل التابعة لتركيا والتي احتلتها ايطاليا حكومة مؤقتة ذات علم خاص . فلما علمت ايطاليا بقرارهم أنكرته عليهم فولدت المشكلة الطرابلسية مشكلة أخرى تدعى مشكلة الجزائر . وفي ١٨ اكتوبر عقدت معاهدة الصلح في لوزان بين تركيا وايطاليا التي قررت اخلاء الجزر والعفو عن مسلك أهلها بعد جلاء العثمانين عن برقه وطرابلس

ولا يشبه اعتداء الايطاليين على طرابلس الا اعتداء الفرنسيين على الجزائر اذ انتهزوا فرصة ضعف الدولة واضطراب حال الجزائر فهاجموها بحجة الانتقام من واليها لاهانة ألحقها بالقنصل الفرنساوي وما زالت الحرب ناشبة بين الفرنسيين والجزائريين بقيادة البطل الشهير الخالد الذكر السيد عبد القادر الجزائري حتى سنة ١٨٤٧ حيث بسطت عليها جناح سلطتها الى اليوم . والا اعتداء الفرنسيين ايضاً على تونس سنة ١٨٨١ اذ زعموا ان قبائل منها تغير على حدود الجزائر فجردوا جيشاً أمعنوا به في داخلها وارغموا سمو الباي على قبول الحماية التي بسطوها عليها والتي صارت بها تونس أسوأ حالاً من مستعمرة فرنسية تابعة رأساً لحكومة باريس. فانت ترى ان امتلاك فرنسا للجزائر واعتداءها على تونس ثم هجوم ايطاليا على طرابلس لا سبب له الا العدوان الصريح والشراهة الاستعمارية والعمل على اقتسام ميراث « الرجل العليل » أي تركيا بزعمهم . فالسياسة لا قلب لها ومبادىء الشرف والعفة لا ذكر لها في دستور الامم الاستعمارية والحق عندهم للقوة والضعيف لقمة سائغة وطعمة تزدرد وما بقاؤه حياً الا لاختلافهم على ميراثه وتشاحنهم على اقتسام أسلابه . ولنعد الى ذكر السبب الذي دعا العثمانيين الى الاسراع في مصالحة الايطاليين وامضاء شروط صلح لوزان في حين كانت كفتهم الراجحة ولم يفز الايطاليون باكثر من ساحل طرابلس مع احتلال بعض جزائر بحر الارخبيل فنقول :

كانت المعاهدات التي تقدمت معاهدة برلين تقضي باحترام السيادة العثمانية . أما معاهدة برلين فانها وضعت السلطنة العثمانية تحت وصاية اوربا وأجازت تصدي الدول العظمى للشؤون العثمانية ثم قررت منح البلغار استقلالاً ادارياً كاملا وأوجبت على الحكومة العثمانية أن تعترف باستقلال الجبل الاسود . ومعاهدة برلين وان كانت قد منعت روسيا من انشاء دولة بلغارية واسعة النطاق فانها تركت مواضع كثيرة للخلل السياسي ودواعي جمة للطمع ونامت الدول الواضعة لتلك المعاهدة عن العمل لصيانتها

فنشأ عن هذا كله ان الامارة البلغارية ضمت اليها الروملي الشرقية سنة ١٨٨٥ ثم أعلنت استقلالها وارتقاءها من امارة الى مملكة سنة ١٩٠٨ فهتكت حرمة تلك المعاهدة مرتين ثم ضمت النمسا البوسنه والهرسك الى أملاكها من جهة أخرى فهتكت حرمتها أيضاً

وما زالت دول البلقان منذ سنة ١٨٧٨ تطلب زيادة على ما ربحت من تلك المعاهدة وقام الخلاف بينها على الاراضي العثمانيـة المطموع فيها وصارت كل دولة تنازع الاخرى أشـد المنازعة حتى اصطبغت هضاب مقدونيا بدماء البلغاريين والصربيين واليونانيين والرومانيين . قال المسيو شوبلييه في تاريخه للمسألة الشرقية بعد مؤتمر برلين « ان هذا المؤتمر زاد ضعف تركيا واشتياق رعاياها الى الاستقلال كما زاد قوة أعدائها في البلقان » وكل من يتنزه عن الغرض يحكم اذاً بان شطراً من تبعة الفوضى التي فشت في البلقان يلقى على تركيا لانها أغفلت الاصلاح فوسعت أبواب الشكوى وأقامت لخصومها الحجة عليهـا وبان الشطر الثاني هو نصيب الدول العظمى التي وضعت معاهدة برلين ونصيب الدول البلقانية التي ملأت البلقان من الدسائس والسعايات والمنازعات بلوغاً الى اغراضها وتحقيقاً لاطماعها

وكانت تلك السعايات والمنازعات من شأنها أن تجعل الاصلاح مستحيلاً أو صعباً جداً . ثم أخذت العصابات المختلفة تسلم سلاحهـا الى ولاة الامور ابتهاجاً بالدستور العثماني فلما كان ما كان من أمر هذا الدستور وشبت الحرب بين ايطاليا والدولة العلية وثبت لساسة الدول البلقانية ما قام في الاستانة من الخلل الذي هو أبو المفاسد عادت الفوضى ثم تناست الدول البلقانيـة عداواتها ودفنت مشاحناتها لتتحالف على « العدو العام »

واسباب الحرب (اولا) ما انطوت عليه الصدور وانحنت فوقه الضلوع من الحقد القديم والضغينة الازلية بين الاتراك والامم البلقانية المتحالفة (ثانياً) طمع كل دولة من الدول البلقانية المتحالفة باسترجاع مجدها القديم وبسطة ملـكهـا الغابر (ثالثاً) ثقة الدول البلقانية المتحالفة بمساعدة روسيا التي يهمها اضعاف الدولة العثمانية وتلاشيها حتى يتم لها احتلال الاستانة بنفسها أو على الاقل بواسطة دولة من الدول البلقانية (رابعاً) استمرار ضعف الدولة والفوضى حتى بعد اعادة العمل بالدستور

كانت للحرب البلقانية مقدمات ونذر فقد اعتدى الجبليون على الاراضي التركية

فغادر المعتمد التركي شتينه عاصمة الجبل وقامت المذابح في برانه وكوشانا على ساق وقدم كما أن ذبح بعض البلغاريين في أشتيب ألهب البلغاريين في بلغاريا غيظاً وحنقاً وطالبوا حكومتهم باعلان الحرب وكان منح البانيا الاستقلال الاداري مقوضاً لدعائم اطماع دول البلقان الاربع في البانيا وقد زعمت صربيا أن تركيا سلبتها بعض ذخائر حربية وزعم اليونان ان الترك اعتدوا على سفينة في مياه ساموس كما ان بلغاريا فضلاً عن شكواها من المذابح رأت في حركات الجنود التركية في تراقيا تهديداً لها. وقد أرسل الكونت برختولد مذكرة الى الدول العظمى يشير عليها فيها بنصح تركيا بمنح ولاياتها نظام الحكم اللامركزي وبنصح الدول البلقانية بالاعتدال والصبر. على أن سعي برختولد كان على غير جدوى وكان لا يرضي دول البلقان غير تحكيم السيف والمدفع

وليس من المعروف الى الآن سر تأليف الاتحاد البلقاني ولا من سعى فيه والراجح أنه داهية اليونان فنزيلوس الكريتي. ومما يعد من قبيل حسن الطالع للبلقانيين وسوء الحظ للعثمانيين ان ولاة الامور في دول البلقان كانوا اذ ذاك من الدهاة الحاذقين الاذكياء وقد تمت المفاوضات وأبرمت المحالفة وهي سر من الاسرار المكتومة عن الترك والاوربيين أيضاً وعبأت الدول البلقانية جيوشها في حين كانت تطالب بتطبيق مادة ٢٣ من عهدة برلين فاجابت تركيا أنها عازمة عزماً أكيداً على تنفيذ قانون ١٨٨٠ الخاص باصلاح الولايات. فهزت الدول البلقانية كتفها احتقاراً ونصحتها النمسا وروسيا بالاعتدال وهددتاهن ببقاء الخريطة على ما هي حتى بعد نهاية الحرب في صالحهن فلم ترعو ولم تسمع لانها كانت لا تريد غير الحرب كما قدمنا. ففي ٨ اكتوبر أعلن الجبل الاسود الحرب وأطلق الامير نقولا أول رصاصة في الحرب البلقانية. وتوالى سقوط البلاد في أيدي الجبليين وتقدمت جيوشهم في سنجق نوفي بازار واستولت على جملة مدن فيه — كل ذلك ولم تكن بقية دول التحالف قد عاضدت الجبليين بعد. وفي ١٣ اكتوبر أرسلت بلغاريا وصربيا واليونان الى النمسا وروسيا وتركيا خطابات تكاد تكون ذات معنى واحد وفيها طلب الاستقلال الداخلي التام للولايات التركية الاوربية وان تكون الحدود بين تلك الولايات وفق الجنسيات القاطنة بها وان تكون حكام الولايات من السويسريين أو البلجيكيين وان تكون للولايات مجالس نيابية وان تنظم الجندرمة ويكون التعليم حراً ولكل اقليم جنود خاصة

به (مليشيا) وان يكون الاصلاح بارشاد لجان مؤلفة من مسلمين ونصارى على التساوي والاشراف الاعلى ليس فقط لسفراء الدول العظمى بل لمندوبي دول البلقان في الاستانة هذا فضلاً عن وجوب تسريح الجيش العثماني ! فلم يسع الحكومة التركية الا رفض هذه المطالب طبعاً واستدعت معتمديها من بلغراد وصوفيا واعلنت الحرب على صربيا وبلغاريا في ١٧ اكتوبر . وفي اليوم التالي اعلنت اليونان الحرب على تركيا وكان فنزيلوس قد قبل في مجلس النواب اليوناني نواباً عن كريت قبل ذلك باربعة ايام وابتدأت الحرب البلقانية فعلاً وكان كثير من الناس يصغر شأن الدول البلقانية

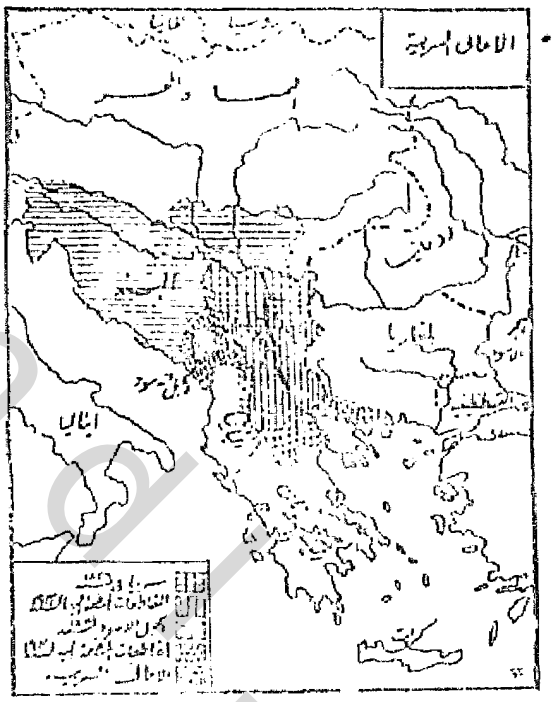

خريطة الاماني الصربية

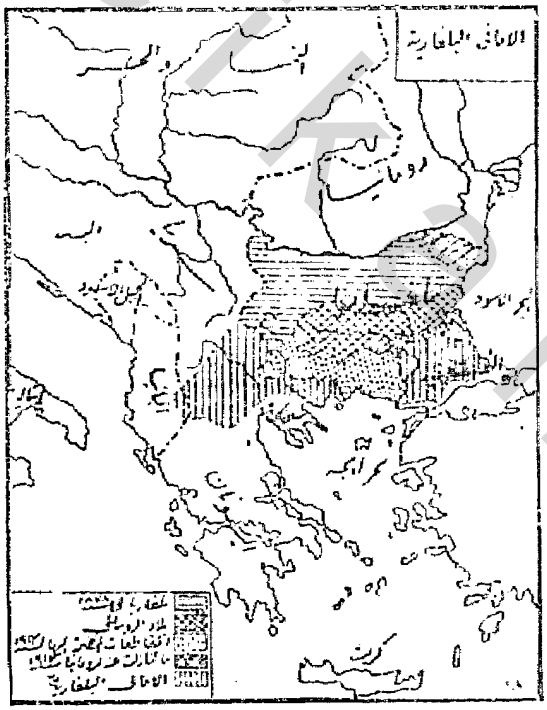

خريطة الاماني البلغارية

ويشفق عليهن من انتقام الجيش العثماني الباسل . على ان اياماً قليلة مضت وظهر ان البلقانيين كانوا على استعداد عظيم وان الاتراك العثمانيين قد خدعوا انفسهم وخدعوا العالم وغموا الاصدقاء وأشمتوا الاعداء فقد سارت الجيوش البلقانية وفي ركابها النصر وتقدمت يحدوها الظفر في كل مكان وتداعت القوة العثمانية في اوربا كما يتداعى بيت اقيم من الورق او قصر بني على الرمال . وكان احسن ما افاد البلقانيين نظام مستتب دقيق ووطنية حارة وثابة وسرعان ما استولى البلغاريون على مصطفى باشا كما انهم استولوا على كرك كليسا في ٢٤ اكتوبر ذلك المكان الذي زعم معلم الجيش التركي ون درغولتز الالماني انه يمتنع على اقوى جيش بروسي ثلاثة اشهر كاملة. اما اليونان

فاحتلوا جملة مدن في مقدونيا الجنوبية وابيروس واحتل الاسطول اليوناني جملة جزائر ـ فضلا عن جزيرتي ايكاريا وساموس اللتين رفعتا العلم اليوناني منذ الحرب الطرابلسية ـ كما انه (أي الاسطول) رفع علم اليونان على شبه جزيرة جبل أثوس المقدس ومنع الاسطول التركي من مبارحة الدردنيل والنقالات العثمانية من اجتياز بحر الارخبيل وأرسلت كريت امداداً كثيرة . أما الصربيون فقد أمعنوا في بلاد صربيا القديمة واعترضهم الالبانيون الذين استعمروها منذ عهدة برلين وقاتلوهم عليها قتالا شديداً ثم انتهى الامر بانتصار الصربيين في موقعة كومونوفو الفاصلة وسلمت لهم البلد تلو الاخرى مما له ذكر وأهمية في التاريخ الصربي القديم. وفي ٢٦ اكتوبر تحقق حلم الصربيين ونالوا مناهم بدخول ولي عهد ملكهم مدينة أسكوب حيث توج ملكهم اسطفان دوشان سنة ١٣٤٦ امبراطوراً عظيماً وتم انتصار الصربيين باخذ برشتينا وبرزرن ثم بسقوط مناستر . وكان البلغاريون في غضون ذلك وفي ميدان لولوبرغاس من أعمال تراقيه يحاربون جيشاً تركياً آخر خائراً جاثماً مكسور الخاطر قاتلوه خمسة أيام بلياليها ثم تعقبوه الى خطوط شاطلجة . وفي ٨ نوفمبر سلمت سلانيك لولي عهد اليونان بعد أن ظلت في قبضة الترك ٤٨٢ عاماً

هنا لا بد من وقفة يرثي فيها القلم دولة السيف . دولة تدول وعز يزول . اين انتم يا غطارفة الاناضول ولبوث آل عثمان وأبطال الترك الاشاوس ؟ ماذا دهاكم ؟ ماذا أصابكم ؟ أكذا تكون مصارع الدول ؟ أتدمي البعوضة مقلة الاسد ، وتقتحم الجرذ العرين ؟ بالامس صال الاسم العثماني وطاول السماكين أيام كان سليمان لا يكاد يسمع باقليم حتى تشتهيه نفسه ولا تكاد تشتهيه نفسه حتى تجتاحه أفراسه والسعد خادم والدهر يرتجف وأوربا بحذافيرها من رهبة الملك العظيم في هلع . واليوم البلغاريون على حدود شاطلجة ! يا للعار يا أعقاب عثمان ونسل بايزيد وأولاد محمد الفاتح وأخلاف سليمان اتسع الملك عليكم فلم تحسنوا سياسته فطمع فيكم من كانوا بالامس من جملة مواليكم

وكذلك تم في بضعة أسابيع انتقاص تركية أوربا من كل جانب ولم يبق منها غير مدينة أدرنه واشقودره ويانيا وهي مدن قاومت البلغاريين والجبليين واليونانيين وغير لسان غاليبولي وشبه الجزيرة الممتد من خطوط شاطلجة الى زقاق البوسفور وقد رأت دول أوربا تلقاء انتصار البلقانيين الباهر أن تعدل عن قرارها السابق أي المحافظة

على خريطة البلقان ـ ولا غرابة فاوربا تكره الاتراك

قال المستر اسكويث رئيس الوزارة الانكليزية من خطبة له في ٩ نوفمبر : لا بد من تعديل خريطة أوربا الشرقية اذ لا يمكن ان نحرم المنصورين من ثمرة انتصارهم ذلك الانتصار الذي كلفهم ثمناً باهظاً . ولما رأت النمسا أن استيلاء الصربيين والجبليين على سنجق نوفي بازار قد حال دون وصولها الى بحر ادرياتيك منعت صربيا من اتخاذ مرفأ لها على ذلك البحر وجعلت من نفسها بمعاضدة ايطاليا نصيراً لانشاء البانيا المستقلة التي نادى بها اسماعيل كمال بك في ڤالونا واعترف بذلك سفراء الدول العظمى في لندن

ثم دخل الصربيون دورازو وانتصر البلغاريون في دموتيكا وفي ٣ ديسمبر امضي عقد هدنة في شاطلجة بين تركيا والدول البلقانية السلافية. فاما اليونان فواصلت أعمالها العدائية . على ان مندوبي الدول المتحاربة الخمس اجتمعوا في ١٦ ديسمبر في قصر سانت جيمس كما أن السير ادورد غراي تصدر مجلساً في الوقت نفسه يضم سفراء الدول العظمى .

ونصحت الدول العظمى للباب العالي بالتنازل عن أدرنه للبلقانيين وترك مسئلة جزر البحر لعناية الدول العظمى . وفيما كان المجلس الاستشاري الاكبر منعقداً في الاستانة وعلى وشك قبول رأي الدول العظمى ظهرت ثورة بزعامة انور بطل الدستور وحرب طرابلس فارغم كامل باشا على الاستعفاء وقتل ناظم باشا القائد العام علناً وفي رائعة النهار ومجلس الوكلاء منعقد وعادت السلطة الى جمعية الاتحاد والترقي . وبعد قليل أي في التاسع والعشرين من يناير غادر مندوبو دول البلقان مدينة لندرة واعلنوا انتهاء الهدنة وعودة الاعمال الحربية . على أن الهدنة انتهت فعلاً في ٣ فبراير وعادت الحرب باهوالها وفظائعها وكان اليونان في غضون ذلك قد تمكنوا باسطولهم من قهر الاسطول التركي خارج الدردنيل واستولوا على مدينة بارغا تلك التي أسفوا على تركها للاتراك منذ ٩٤ سنة اسفاً عظيماً وعاد البلغاريون الى القتال حول أدرنه وفي شاطلجة وشبه جزيرة غليبولي وعاد الصربيون والجبليون الى مهاجمة اشقودره وزادت خسائر الطرفين المتحاربين وحاول أنور بك ان ينزل بقوة عظيمة وراء البلغاريين فاخفق سعياً وخسر كثيراً ثم سقطت أدرنة في ٢٦ مارس بعد دفاع طويل باسل مجيد وبعد ان كتب حماتها الابطال صحيفة مجد خالد من صحف تاريخ الجندية العثمانية صحيفة تشهد

لقائدهم شكري باشا الهمام بانه من طراز أولئك الابطال الاشاوس الذين اكتسبوا ببسالتهم وحذقهم ثقة امتهم واحترام العالم اجمع . وكانت الجيوش اليونانية قد شددت (بقيادة ولي العهد وهو الملك قسطنطين الحالي) الحصار على يانيا وألحت عليها بالمدافع تحت تأثير برد قارس وجليد متساقط . وفي ٥ مارس سلمت حاميتها الباسلة بقيادة وهيب بك بعد دفاع باسل مجيد

ولما رأت الدول ان يانيا وادرنه قد صارتا الى البلقانيين وان الجيوش المرابطة حولها قد تستخدم في الاستيلاء على الآستانة وان البلغاريين قد يجدون في فتحها

خريطة الاماني اليونانية

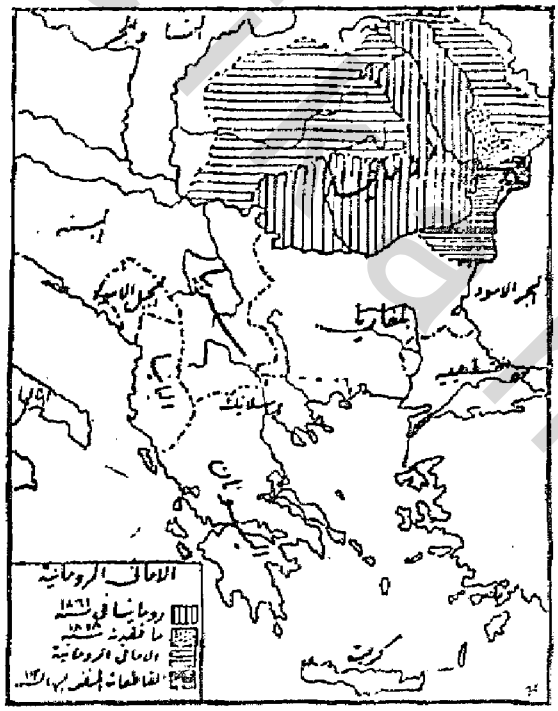

خريطة الاماني الرومانية

فتقوم المشاكل العظيمة بسبب الاختلاف على امتلاك تلك العاصمة الثمينة نصحت للمتحاربين بتوقيف الاعمال الحربية وافهمت البلغاريين ان كل دم يراق يكون بعد ذلك عبثاً وانها لا تسمح باقتراب احد من مدينة البوسفور وجعل خط التحديد بين الاملاك البلغارية والاملاك العثمانية من اينوس على بحر ايجه الى ميديا على البحر الاسود وان تكون ادرنه للبلغاريين . فقبل الاتراك ذلك مكرهين ورضوا باستقلال البانيا والتنازل عن كريت لليونان وتفويض امر الجزر للدول العظمى . وقررت الدول ان يعقد مؤتمر مالي في باريس ينظر في امر الغرامة المالية التي طلبها الاحلاف

وفي مقدار الدين الذي يجب عليهم ايفاؤه من الديون العثمانية بعد اخذ ما اخذوا من الولايات العثمانية الاوربية . ولما ذاعت شروط الصلح رأى بعض العثمانيين ان وزارة محمود شوكت باشا رضيت باثقل من الشروط التي رضيت بها وزارة كامل باشا وزاد الاستياء وصرع شوكت فتولى الصدارة الامير سعيد حليم باشا وكان الصلح الذي ابرم في ٣٠ مايو سنة ١٩١٣ بين تركيا ودول البلقان ختام مأساة او فاجعة من فاجعات التاريخ العثماني وبه طويت صحيفة ذل وعار لا ينساها العثمانيون ابد الدهر

ثم قام الخلاف فيما بين البلقانيين [١] فطلبت بلغاريا من اليونان ان تجلو عن سلانيك وتسلمها اليها فرفضت اليونان هذا الطلب وقالت انها لا تسلم سلانيك الا بالقوة كما أن سربيا احتلت مدناً تطمع فيها بلغاريا وزعمت صربيا انها اضطرت الى الرضى باستقلال البانيا لاسباب دولية وانها قامت باكثر مما يجب عليها في قتال العثمانيين وتحرشت رومانيا ببلغاريا وتهددتها اذا نشبت حرب بينها وبين حلفائها بالامس فلم تعبأ بلغاريا بالتهديد مع احاطة الاعداء بها من كل مكان وأقدمت على محاربتهن جميعاً ثم طلبت الصلح في ٣٠ يوليو وعقد مؤتمر بخارست الذي وضعت بموجبه خريطة البلقان على ما نعرفها قبل نشوب الحرب الاوربية العظمى

(١) انتهزت تركيا فرصة هذا الخلاف وزحفت جيوشها على تراقيه وادرنة وفازت باسترجاع ادرنه وتعديل حدود تراقيه تعديلا لا بأس به

خاتمة

تركيا والحرب العظمى

المسئلة الشرقية ومعاهدة سيفر

الاقدام على تدوين الحوادث مع قرب وقوعها ومن غير تفهم أسبابها المجهولة عمل ينبو عنه ذوق المؤرخ الذي يعرف لعمله قيمة . والحرب الكبرى حادثة على جلالة قدرها واتساع نطاقها وتعدد من اشترك فيها وخطورة نتائجها وروعة مشاهدها وتنوع ضحاياها وبالغ فتك آلاتها الجهنمية قريبة عهد بنا ولجزئيات حوادثها من الاسباب المكتومة والعلل المجهولة والظروف الخفية والدواعي الغامضة ما يجعل عمل المؤرخ المتسرع عملاً محفوفاً بالمخاطر مقروناً بالخطأ والخطل . ونحن نربأ بانفسنا عن أن نقع فيما تنهى غيرنا عنه وما قصدنا في هذه العجالة الا القاء نظرة عامة على تأثير تلك الكارثة الكبرى في المسئلة الشرقية ـ موضوع كتابنا

وأول ما يلاحظ انه لم يكن في مقدور الدولة العلية مطلقاً المحافظة على حيدتها . وكان لا بد لها عاجلاً أو آجلاً من دخول الحرب ـ كما حصل ـ مع احد الفريقين المتحاربين لان موقعها وسط القارات وعلى أهم بحور وبوغازات العالم مع ضعفها ضعفاً يقعد بها عن دعم الرأي الذي تراه بالقوة ثم مجاورتها لروسيا واملاك انكلترة وتأثرها بالسياسة الالمانية وخضوعها لالمانيا عسكرياً واقتصادياً كل ذلك كان يدفعها حتماً الى دخول غمار الحرب مضطرة لا مختارة وقد يركب المضطر الصعب من الامور وهو عالم بركوبه

أما وهو مسلم بانه كان لا بد من دخولها الحرب ـ وقد دخلت فعلاً ـ فقد وجب علينا ان نلم باسباب دخولها الى جانب المانيا دون انجلترة : ذكر الذاكرون ان المانيا كانت قد ارتبطت قبل نشوب الحرب الكبرى مع تركيا برباط معاهدة تقضي بدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا فيما لو نشبت حرب بينها وبين احدى الدول . وانه كان لا بد لتركيا من احترام العهد الذي ارتبطت به خصوصاً وقد كان للالمان السيطرة على دوائر الاستانة العسكرية والسياسية . وذكر آخرون ان الالمان بذلوا رشوة لبعض الخونة من رجال الدولة وذوي التحكم في الرأي العام من أرباب الجرائد

حتى حملوا الناس على التشيع لالمانيا والتقرب منها ثم الانضمام لها . وقال آخرون مطلعون على حقائق الاخبار ان الترك غاظهم من الانكليز وضع يدهم على البارجتين العثمانيتين الكبيرتين اللتين أوصت حكومة الترك معامل انكلترة على صنعهما فلما اكتملتا وتسمت احداهما « رشادية » والاخرى « السلطان عثمان » نشبت الحرب فاخذتهما انكلترا دون ان تبتدرها تركيا بشر او تقابلها بمكروه فاسرع الالمان وعوضوا الترك خيراً منهما بارسال « جوبن » و« برسلو » مع اقراض مال وتقديم سلاح وذخيرة وارسال ضباط للتعليم والارشاد والاشراف والهيمنة وتقوية الحصون . فاحسان المانيا حيث اساءت انكلترة كان له أكبر أثر في تكييف سياسة تركيا قبيل الحرب . هذا الى ان موقف انكلترة في حرب طرابلس وحرب البلقان لم يكن موقف صديق معاضد بل موقف عدو شامت وكاره معاند . والى ان المانيا كانت قد اصطنعت في تركيا أصدقاء يجلونها ويحترمونها ويعنون لها ويأتمرون بأمرها مثل أنور وبعض شيعته من حزب الاتحاد والترقي ممن كانوا يبرهنون على حسن نية المانيا وخبث طوية انكلترة بما قدمنا من البراهين

وقد كان مفتتح الحرب في ٢٧ و ٢٩ اكتوبر سنة ١٩١٤ وفيهما اعتدت بعض السفن العثمانية على السفن والسواحل الروسية في البحر الاسود — هذه رواية الحلفاء . ورواية الاتراك انه قام لديهم الف دليل ودليل على أن السفن الروسية كانت تحمل الالغام لبثها في مياه البوسفور وانها كانت على نية ضرب السواحل العثمانية . فلما رأت انكلترة من تركيا ذلك أعلنتها الحرب في ٥ نوفمبر وتلا ذلك أمر ملكي بريطاني بضم جزيرة قبرص ثم دفع الروسيون الجيش التركي الذي سارع الى حربهم في القوقاز وتعقبوه الى الاناضول الشرقية (من نوفمبر الى ديسمبر سنة ١٩١٤) وارسل الانكليز جيشاً واسطولا على العراق (لافساد خطة الاتراك التي املتها عليهم المانيا لتهديد طريق الهند) وبعد قتال طويل الامد عظيم النفقة كبير الجهد والمشقة وبعد أن سلم في ٢٨ ابريل في كوت الامارة الجنرال تونزند و ١٣ الفاً من جنده اتيح للانكليز بعد امداد الجيش ومغالبة العوائق من التقدم بقيادة الجنرال السير استانلي مود واجلاء الاترك عن العراق بعد أن استولوا على بغداد في ١١ مارس سنة ١٩١٧ وكسروا جيش احمد بك كسرة شنيعة . هذا الى أن جيشاً انكليزياً آخر صد الاتراك عن عبور قناة السويس بين ٢ و ٤ فبراير سنة ١٩١٥

وتعقبهم في شبه جزيرة سيناء ثم غزا فلسطين . ففي ٣١ سبتمبر سنة ١٩١٧ احتل بير سبع وفي ١١ ديسمبر دخل بيت المقدس وسار منها شمالاً بعضده الجيش العربي بقيادة سمو الامير فيصل يفتح البلاد ويتسلم المدن ويأسر الاسرى الكثيرة (بلغت جملة الاسرى العثمانيين الذين وقعوا لجيش الجنرال اللنبي لغاية ٢٥ سبتمبر سنة ١٩١٨ ٤٠ الفاً وجملة المدافع ٢٦٥) والجيش العثماني متقهقر وقد التوى عليه الامر وفقد منه النظام وسدت في وجهه المنافذ . فالروسيون من الشمال والانكليز من الشرق والعرب والانكليز من الجنوب والغرب واساطيل الحلفاء متحكمة في السواحل . هذا الى فساد الخطط الحربية وعداوة العرب وعوز القوت وقلة الذخائر وندرة طرق المواصلات كالسكك الحديدية خصوصاً (استفتح العرب حربهم مع الترك بتدمير سكة حديد الحجاز) وتفرق القلوب واختلاف الاهواء وتكاثر الاعداء على المانيا والنمسا فلم يكن بمقدورهما دفع الاعداء عن بلادهم فكيف ببلاد غيرهم . ذلك كان حال الجيش العثماني حينما نال الاعداء من تركيا في أربع سنين ما لم يتم لهم الحصول عليه في أربعة قرون

وقد جرى الاتراك قبيل الحرب (١٩١٣) على سياسة قبيحة نفرت منهم قلوب العرب وغيرهم سياسة دعوها « يني توران » أي توران الجديد ويمكن تعريفها بانها حركة يراد بها السير في جهة القومية التركية والابتعاد عن الاسلام وأغراضها الفصل بين القومية والدين وترقية الروح العسكرية وانشاء علاقات مع مسلمي ايران وتركستان وجنوب روسيا وتحرير اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية . وقد كان اولى بالترك أن يجمعوا القلوب على محبتهم بمنح كل فريق نوعاً من الحكم الذاتي المعروف بالحكم اللامركزي وتأليف نظام سياسي تصير به السلطنة العثمانية أشبه الاشياء بجمهورية الولايات المتحدة الاميركية أو الامبراطورية الالمانية

وقد خسر الاتراك بدخولهم الحرب الى جانب المانيا خسائر مادية جسيمة (عبأوا ١٦٠٠٠٠٠ رجل مات منهم ٣٠٠٠٠٠ وجرح ٥٧٠٠٠٠ وتاه أو اسر ١٣٠٠٠٠ فالمجموع مليون رجل والخسارة ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه) واقتطعت منهم أقاليم واستقلت امصار فقد استقل الارمن بالاناضول الشرقية والعرب بالحجاز بزعامة الملك الشريف حسين وصار أمر الشام ولبنان الى فرنسا والعراق كله

وفلسطين الى انكلترة ومحيت سيادة الترك على القطر المصري منذ ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٤

أما خسائرهم الادبية فتنحصر في خروج الحجاز ومكة والمدينة والحرمين الشريفين الذين كثر ما افتخر سلاطين آل عثمان بين ملوك الاسلام بالقوامة عليهما هذا فضلاً عن ضياع فلسطين وبيت المقدس اللذين تحكم فيهما الجنس التركي رغم أنف اوربا من العصور الوسطى الى ان دخلها الجنرال اللنبي ظهر ١١ ديسمبر سنة ١٩١٧

وقد حلت المسئلة الشرقية حلاً نهائياً تاماً بدعوة الاتراك الى امضاء شروط معاهدة سيڤر في الساعة الرابعة والدقيقة ١٠ من يوم ١٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ اذ قررت هذه المعاهدة فيما قررت أن لا يكون مفتاح البوغازين بيد الاتراك وان تكون جيوشهم وماليتهم تحت رقابة اوربا وان يسلموا بخروج ما خرج من أيديهم من الامم والاقاليم والبقاع وأن لا يكون لهم غير الاناضول التركي مع بقاء الخليفة في الاستانة مرهوناً بحسن سلوك تركيا في المستقبل

غير أن الله سبحانه وتعالى أراد أن لا يكون حل المسئلة الشرقية من حوادث هذا الجيل ونظر الى الاتراك نظرة عطف وحنان فحدث من الحوادث قبيل وبعد امضاء معاهدة سيڤر ما اذن بتأخير حل المسئلة الشرقية واحياء آمال الامة التركية

وبيان ذلك ـ وهو من أعجب ما رواه التاريخ ـ ان روسيا التي جدت في اضعاف تركيا واقتطاع أرضها والاعتداء عليها قروناً عديدة وكان حل المسئلة الشرقية مرهوناً بها صارت فريسة ثورة اجتماعية شيوعية اثارها قوم يعرفون بالبلشفيين يدينون بحرب أرباب الاموال والاستعماريين ونصرة العمال « وصعاليك العالم » فهؤلاء الشيوعيون بعد أن تم لهم استلام مقاليد الاحكام نفضوا ايديهم مما ارتبطت به الحكومة القيصرية وحكومة المعتدلين التي قامت في أثرها برئاسة كرنسكي وانقلبوا على الحلفاء ثم ناصروا اتراك الاناضول الذين هبوا لتعديل معاهدة سيڤر بقوة السلاح . فروسيا التي جدت قديماً في حل المسئلة الشرقية هي الدولة الاوربية الوحيدة التي تعضد الترك في الغاء معاهدة سيڤر اعتقاداً منها بان معاهدة سيڤر معاهدة املتها المبادىء الاستعمارية لاخراج ارض ومياه تركية من الحكم التركي

وخير ما نختم به هذه العجالة كلمة عن النهضة التركية الاناضولية التي قام بها مصطفى كمال باشا لنقض معاهدة سيڤر

« لما استقر مصطفى كمال في الاناضول أدرك وجوب لم شعثه وتنظيم جيشه فعمل على ذلك وظل يرقب الحوادث في الاستانة ليرى ما تؤول اليه الحال . فلما تألفت وزارة المشير عزت باشا الاولى عقب الهدنة قصد الاستانة وأقام فيها مدة وجيزة ثم عين مفتشاً لجيش الاناضول . فوافق هذا التعيين هوًى من نفسه اذ أتاح له اتمام ما كان قد شرع فيه . فبرح الاستانة واتخذ ارضروم مقراً له وأخذ يبذل عنايته في تنظيم الجيش وأنشأ مستودعاً للاسلحة وترسانة لاصلاح ما تعطل منها وضم اليه نخبة من الضباط العثمانيين الذين بقوا في الاناضول بعد عقد الهدنة أو جاؤوا من الاستانة بعد احتلال الحلفاء لها

« ثم ان الحلفاء لم يلبثوا ان حلوا المجلسين النيابيين في الاستانة واتخذوا سياسة الضغط والعنف مع الاتراك فكان من جراء ذلك ان هجر فروق صفوة رجالهم ومفكريهم والتفوا حول مصطفى كمال فاشتد بهم ساعده والف في انقره حكومة وطنية تمثل الشعب التركي تمثيلاً حقيقياً وتعبر عن أمانيه ورغائبه بخلاف حكومة الاستانة التي كانت صورة لا حياة لها . وقد حدد المجلس العمومي في انقره الخطة التي يجب على مصطفى كمال ورجاله اتباعها لتخليص الشعب التركي واسترداد كرامته في جلسة عقدت في ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠ وهي تتلخص في استماتة الامة التركية في الدفاع عن حقوقها واجلاء الفرنسيين واليونان عن الاراضي التركية والغاء رقابة الحلفاء المالية والحربية

« ولما رأى مصطفى كمال ما يكتنفه من الخطر وهو يقاوم وحده عدة دول كبيرة رضي أن يستعين بحكومة روسيا السوفيتية فعقد محالفة مع لنين لعلها كانت من أهم الاسباب التي اضطرت الحلفاء الى الرجوع عن خطتهم الاولى تجاه الشعب التركي

« وقد بذل مصطفى كمال جهده لتحقيق الاماني التركية فما برح النصر حليفه يزيده قوة ويزيد مركزه توطيداً حتى اضطرت حكومة الاستانة الى الاعتراف به وتسليمه الزعامة الفعلية في ما دار مع الحلفاء من المفاوضات

« وقد أدرك الحلفاء — ولولا قيام مصطفى كمال ما ادركوا — ان معاهدة سيفر لم تكن قائمة على أسس العدل والانصاف فارادوا تنقيحها فعقدوا مؤتمراً في لندن واقترحوا على تركيا واليونان اقتراحات معينة ولكن اليونان ابوا العمل بها وارادوا تحكيم السيف كما يعلم القراء » (عن الهلال)